إلى القارئ

حول البحث العلمي

بقلم : البشير بن سلامة

هذه المسألة هامة جدا لأن بها يرتبط مستقبل الشعوب والمجتمعات وعليها ترتكز جل جهود الدول العاملة على أن تبقى لها كلمتها فى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . اذ البحث العلمى يعتمد أساسا على جملة ما يكتشف من المعارف الجديدة وهى بدورها تمكن من استحداث التقنيات أى هذه الوسائل التى بها يغير الانسان محيطه .

واذا كانت قوة الدول تقاس قبل سنة 1945 بقدرتها الصناعية والتقنية فان عاملا جديدا فعالا برز للعيان وهى طاقة الدول علميا ومدى ربطها بين البحث العلمى البحت وتطبيقه وانتاج الوسائل التقنية الجديدة وتوفير جميع الظروف لاقامة صناعة تعتمد على الاكتشافات والتطلعات الجديدة والسعى دائما الى استنباط النظرية وإتباعها بالتطبيق فى وجوهه العديدة .

وبهذه الصورة تم الربط بين البحث والتنمية واعتبارات التحكم فى العلم انما هى جزء من عملية الحكم . ولهذا نجد ان الدول الكبرى القادرة على تغيير سير أمور الدنيا انما هى تلك التى قدرت على ايجاد الروابط المتينة والعملية بين الجامعيين والصناعيين والاقتصاديين وهى التى أمكن لها بالتالى أن تقيم الجسور بين الجامعة والصناعة والحكومة . وضمنت بهذه الصورة مشاركة الباحثين فى تصور واستنباط السياسة فى أنبل معانيها وجعلت منهم المستشارين والاداريين والدبلماسيين وواضعى الخطط الاستراتيجية .

ولقد تبينت فى زيارتى للولايات المتحدة الامريكية أن البحث العلمى هو أساس قوة هذه الدولة وأن تداخلا كبيرا موجود بين ما تقوم به الجامعات وأكبر الشركات الصناعية وأن هذا يقتضى أن يبدأ البحث العلمى فى مستوى الطلبة وأن الاساتذة لا يلقنون علوما نظرية بحتا بل يشركون الطلبة فى

بحوثهم فيكون تعلمهم خلاقا يدفعهم الى الاعتماد على أنفسهم والى تنمية ملكة الخلق والاستنباط فيهم . وهو ما يجعل المؤسسات الجامعية تحرص على أن يكون مستوى البرامج رفيعا وقيمة الاساتذة لا يشك فيها .

وظهر لي ان العنصر الاساسى لضمان هذا المستوى هو البحث دائما كما يقولون على ايجاد جيل جديد من الادمغة الالكترونية وجعل الآلات قادرة على تصور مفاهيم جديدة صعبة المنال واعطاء نفس جديد فى مجال التجارب المخبرية وتنمية الخبرات فى كل المعارف الى حد تشجيع كل أنواع الحدس الذى يؤدى فى البدء الى نتيجة ملموسة ويشمل هذا الاتجاه كل أنواع المعارف بما فيه الهندسة المعمارية والانسانيات والعلوم الاجتماعية وعلم تقنية ادارة المؤسسة والتصرف فى شؤونها وغاية كل ذلك هو اعداد أجيال مستعدة للاستجابة الى ما يتطلبه عالم الصناعات والتجارة والانصهار فى المجتمع بما يزخر به من طاقات .

وإن ما تتطلبه معاهد البحث العلمي من تمسك بعدة صفات هو الكفيل بنجاحها اذ يقتضى فيذلك الحرص على المستوى واستنباط البرامج الطموحة فى مجال الفنون والانسانيات وتربية الطلبة على أن يصبحوا أفذاذا فى مجال عملهم ومواطنين صالحين بالنسبة للانسانية قاطبة والربط بين التعليم والبحث بصفته نشاطا اضافيا يكمل بعضهما بعضا .

والغاية القصوى التى ترنو اليها المعاهد هى أن تكون البرامج على درجة عليا من المستوى فى التعليم والبحث متجهة اتجاها بارزا نحو المصالح العمومية وممكنة الاساتذة والطلبة والاعوان من مجالات مختلفة فى عالم الآراء والافكار ووجهات النظر لا تترك جهة لا تعتنى بها ولا صنفا من الناس لا تهتم به نساء ورجالا شبابا وكهولا وشيوخا .

وفي كلمة واحدة فان هذه المعاهد هى كما قال رئيس مؤسسة كبرى للتعليم والبحث بمثابة جانوس فى الميثولوجيا له وجهان وجه ينظر الى الداخل اى الى كل ما يتعلق بالطلبة والاساتذة والاعوان والوجه الآخر ينظر الىالخارج أى الى كل ما يرتبط بالاشعاع الفكرى والعلمى .

وهكذا نرى أن كل هذه المعاهد انما غايتها القصوى أن يكون عملها يؤدى حتما الى الانصهار فى المجتمع وافادته ودفعه الى الامام وحل مشاكله مهما كانت صعوبتها وتمكين كل الفئات من الاستفادة بما يتفاعل من آراء وأفكار فى هذه المعاهد .

ويتضح بهذه الصورة عندما نريد أن نتحدث عن عالمنا الثالث . أن مشكله الاساس هو القطيعة بين معاهد التعليم والمحيط اذا نحن لم نتحدث عن بوادر البحث الموجودة في الجامعات والمعاهد العليا . اذ أن مجتماتنا لا تستفيد الا بالقدر القليل نظرا الى التفاوت وعدم التلاؤم بين ما يتطلبه المجتمع من مشاريع جديدة وتطلعات مؤاتية موجود وبين ما يلقن في المدارس والمعاهد .

ويمكن أن نلقي أسئلة عديدة تتصل بالمشاكل التي تتخبط فيها مجتمعاتنا ولا نجد لها الجواب الذي يهيأ في معاهد التعليم والبحث ويربى عليه التلامذة والطلبة ويمكن أن يكون له تأثير فعال في حمل العقول على الفهم والاسهام في البناء والخلق .

والقطيعة موجودة بصورتين اثنتين اما بما ذكرت من عدم التلاؤم والترابط أو في صورة اهتمام معاهد التعليم والبحث بمشاكل المجتمع وايجاد الحلول لها فان هياكل المجتمع لا تستفيد ولا تلتفت الى ما استنبطه الباحثون واستجلوا حقائقه ومبهماته .

واذا كانت مجتمعات العالم الثالث في حاجة أكيدة الى البحث العلمي للنهوض بالصناعات والتقنيات فانها في مجال الانسانيات والعلوم الاجتماعية والسياسية أشد حاجة لان التقدم العلمي وانتشار التعليم لم يمنعها من التمسك برواسب الماضي مداومة التلبس بالسلوك الذي لا ينم لا عن تقدم علمي ولا عن شعور حاد بالمسؤولية وجد قوامه الاخلاق الرفيعة والاتصاف بروح المواطنة والتضامن .

وهذه السلبيات تحتاج الى التحليل والبيان والى وصف للادوية بتظافر جهود فئات المجتمع ووسائل الاعلام والثقافة حتى يتم تقويم المعوج وتثبيت سلم القيم وبذلك يبقى المجتمع سليما يقول للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أسأت.ويخول للقادرين الاكفاء أن يكونوا في مكانهم في قمة المجتمع وللقاصرين الذين تقمصوا الرداءة والوصولية في مستوى قصورهم ورداءتهم.

فلماذا مثلا نجد بلدان العالم الثالث التي بادرت بتشريع الدساتير وسن القوانين لا تتحرج من مخالفتها والقضاء على ما شرعت وسنت باحلال الحكم المطلق محل الشرعية الدستورية ؟

ولماذا تجد دائما في هذه البلدان الى جانب السلطة الشرعية نفوذا قويا موازيا مطلقا لا يقدر على محاسبته أحد يحقر من العمل الشرعي ويقوض أركانه ويشيع الاقاويل في رجال الدولة ويحصي سقطاتهم ويخفي محاسنهم حتى تختلط القيم عند الشباب وعامة الشعب فيصبحون غير مستعدين

للاعتزاز برجالاتهم وامجادهم وعند ذلك يصير المجتمع كالورقة فى مهب الرياح لا يصمد أمام العواصف وهى كثيرة ويبقى دائما عرضة للاهوال لا يستقر له قرار حتى يسقط السقف على الجميع كما عرفناه فى عدة حضارات قديمة ؟

ولماذا لا تميل هذه المجتمعات فى حالات أخرى الى الاعتزاز برجالاتها وأمجادها بل هى تنكر عليهم كل شيء وهذا نراه حتى ضمن الفئة الواحدة والجهة والطبقة وحتى فى صلب حزب بذاته ؟

ولماذا لا تحرص هذه المجتمعات على لغاتها ولا تعتز وتنهض بها وتشيع آثارها وتكرم نبغاءها لا فى المناسبات بل يوميا وتلقائيا وتعترف لهم بخدماتهم حتى يعتز بذلك الشباب ويكون له من الامل والتوق ما يجعله يطمح الى خدمة المجتمع والرقي به ؟

ولماذا نجد المناوئين للحكم القائم ليس لهم من عمل الا احصاء الغلطات والانطلاق دائما من ردة الفعل لا من الفكرة البناءة والبرنامج السياسى المتكامل بل من الغيظ الكامن والشعور بالحقد .

ولماذا يجد فى البلدان المتخلفة الصديق من صديقه والاخ من أخيه العنت والعذاب مما لا يجده العدو مع عدوه والغريم مع غريمه وخاصة اذا كان الواحد منهما أكثر جاها أو مالا أو نفوذا ؟

ولماذا ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟

أسئلة كثيرة يمكن أن تطرح وليس من علاج لها الا الانكباب عليها بحثا وتنقيبا واستنباطا للطرق التى تزول بها سواء فى برامج التعليم أو التثقيف أو الاعلام .

ان أوكد الاعمال فى مجتمعات العالم الثالث هو ان تنحو فى البحث العلمي نحوا لا يقتصر على التقنية والتكنولوجيا وهما لا محالة قوام المجتمعات العصرية بل يتجاوز ذلك الى مداواة هذه العلل مداواة ناجعة والا فان هذه المجتمعات مهما تقدمت صناعيا وتجاريا فانها تنهار اذا هى لم تعالج العقليات والسلوك والاخلاق ولم تثبت فى الاذهان حب الخير والتآلف ولم تبذر بذرة الخلق والابداع والبناء فى العقول والنفوس .

البشير بن سلامة

أيّام .. وأحلام ..

شعر: د. محمد عبد المنعم خفاجي
(مصر)

مضت السنون ومرت الايام   مرت ، كأن طيوفها أحلام
عشرون ، لا ، بل أربعون تدافعت   أنا والهوى وصدى الرؤى أوهام
وسمعت صوتا ما أعز صداه فى   أذنى ، وعدت ، وعادت الايام
وكأن كل جوارحى النشوى تحد   ثنى بما صنعت بنا الاعوام
أو أنت يا أمل الحياة ومن به   سكرت بسحر حديثه الانغام ؟
وأنا الذى زرع السنين على المنى   وبروحه طى الاسى الالهام ؟
شفتاه تهزج بالحياة وقلبه   فيه من اللهب الرهيب ضرام
أأنا الذى طوت الهموم شبابه   عصفت به وبحلمه الآلام
بين الجوانح سر صوت هامس   وعلى الشفاه من الخلود سلام
وطوى الحديث وعطره فى خافقى   عبق ، كما تطوى الندى الاكمام
وذكرت أيامى التى سلفت وأحـ   ـلامى التى عصفت بها الايام

* * *

خبات طيفك فى حنايا اضلعى   وكتمت سر الوجد فى همساتى
حدثتنى فحسبت أنى حالم   فى يقظة موصولة بسبات
أوشكت من فرحى أكذب مسمعى   وملأت بالامل الشهى حياتى
ما كنت أحسب قبل يجمعنا الصدى   أن المنى منى على خطوات
وسهدت حين سمعت همسك والضحى   متبسم هيمان فى بسماتى

وتموجت سحرا ، فقلت مناجيا : شمس الضحى أو كوكب الظلمات
يا نجمتى فى الافق أنت على الجوى وعلى النوى ، أنت المنى ، وحياتى
ولانت نبراس يحاصر ظلمتى ولانت فجر النور فى ليلاتى
ليلى ! وهل أحلى من اسمك ؟ إنه أنشودة الولهان فى الصلوات
حار القصيد وضاع منى والتوى وتلعثمت من نشوة كلماتى
يا نجمتى لا تحزنى إن فرقت احلامنا أيدى الزمان العاتى

* * *

عصف الظلام بكل احلامى وما أبقى على أمل وحلو رجائى
يا أيها البدر الذى وشى الدجى بالتبر ، بالاضواء ، بالانداء
أسماء يا أخت الكواكب والسنا أو ترجع الايام يا أسمائى
لكأنما جمع الزمان فكنت أنـ ـت ضياءه فى الليلة الظلماء
ما كان أسعدنى زمان أطير من فنن الى فنن وكوثر ماء
ونشيدى العذب الجميل من المنى كانت على ليل الهموم ضيائى
كانت مناى وطيف افراحى وكـ ـل سعادتى فى وحدتى ، ودعائى
وكتمت فى صدرى شجون مطامحى أملى أمام مواكبى وورائى

* * *

يا يوم ودعت المنى ومضيت فى التيه المهموم والظلام ركابى
ونظرت ، والوجع الهتون يلفنى بسحابه الهامى ، الى الاحباب
ووقفت فى الاعراف أبكى جنتى ودعتها وأنا على الابواب
أجنيت من دنياك الا علقما وشربت من دنياك غير الصاب ؟
تقتات من روحى ومن حلم الصبا ورحيقه المطلول عطر شبابى
وأعيش وسط جهامها وغيومها وتضيق فى أسبابها أسبابى
قسما بوجهك بالصباح وبالضحى لأظل أرفأ بالمنى أهدابى
وأظل أمسح بالدموع معازفى شوقا الى الاحباب والاتراب

د. محمد عبد المنعم خفاجى

في تربية الطفولة المبكرة

بقلم : عزوز عبد النبي

للاشهر الاولى من الحيـاة بل للاعوام الاولى منها اهمية مصيريـة لها كل التاثير على تفتح الفرد ، فالطفل يتطور فى السنوات الخمس الاولى من حياته أكثر مما يتطور فى العشر أو الخمس عشرة سنة الموالية . وتمثـل المسـافة التى يقطعها فيما بين السنة الثالثة والسنة السادسة من العمر مرحلة بالغة الاهمية الى حـد ان الاستـاذ (زازو) يرى فيها : عظمـة وجسامـة فتـرة جيلوجية كاملة . لان الطفل وهو فى السنة الثالثة يكون فى مـرحلة وسط بين الرضيع والانسان الراشد . اما المفكر بيقى فهـو يردد بعـد « روسـو » وقبل بياجي بانه فى السنة الخامسة من عمر الطفـل يكـون كل شيء قـد حصـل .

وفى هذا التطـور بالذات تنجم وظائف يتحتم استخدامها حتـى لا تتقلص وتضمحل فمنذ الولادة يكون الطفل حاملا لامكانات عدة . فيجيء ومعه ذخيرة تتوق الى التفتح والنمو . لذلك تجدر اعانته على اعـادة تفكيـره لاثـارة مـا يقدره على الحركة والملاحظة والحكم ، اى باثارة كـل الامكانـات التى يحملها فى ذاته والتى اذا ما اكتمل نموها تساعـده على توطيد حياته كراشد ولهـذا يقـال :

ان المرء يبنى حياة الرشـد فى الفتـرة التى تتـراوح بين الصفـر والسبع سنوات .

ثم ان تطـور الطفل لا يشبه نمو النبات . فهو تطـور يتم وسط الآخرين . فالطفل الذى يكون متصلا باندداه ينمـو ويتفتح بصورة اتم من الذى يبقـى

محبوسا فى وسطه العائلى حيث لا يلتقى الا بعدد قليل من انداده أو هو لا يلتقى بهم بالمرة .

ثم ان مستوى افصاحه يكون رهين مستوى افصاح الاسرة . اما تشوفه الفكرى فيكون على مقدار تشوف العائلة . ففى هذه الظروف تتسبب الفروق الوجدانية والاجتماعية ، من اسرة الى اخرى ، فى عدم مساواة الحظوظ .

وحين يجيء ابان دخول المدرسة الابتدائية يلاحظ وجود فارق سنة بأكملها بين الاطفال المعوزين والاطفال المحظوظين ويزداد هذا الفارق استفحالا بمر الايام . فكيف يمكن الحديث عن الديمقراطية الحق فى مجال التربية والتعليم ان كانت تنشأ مثل هذه العكسيات فى سنة جد مبكرة؟! على انه ينبغى ألا ننسى ان تأثير الاسرة فى الاوساط المحظوظة ليس دوما تأثيرا سعيدا من حيث التفكير كما يخطر لبعضهم ، فكم من ابناء مدللين أصبحوا لا شيء : وبعد أو لم توجد أسر تكون فى الآن نفسه محظوظة وعديمة الثقافة ؟ أو لم يوجد أولياء مثقفون ومع ذلك غير عابثين بدراسة اطفالهم ؟ . ثم الم تبرز تجربة المعاهد الثانوية ان التلاميذ الاكثر حظوة هم الذين يكونون من اوساط متواضعة لها شغف بالتعلم والدراسة ؟.

على انه اذا ما قارنا اطفال الاوساط المعوزة بغيرهم من الاوساط المحظوظة المثقفة نجد هؤلاء يحققون الاعمال والالعاب فى المدرسة بصورة اتم واكثر اطمئنانا من الاخرين الذين يكونون اكثر خجلا ويشعرون اكثر من غيرهم بواعز الوحشية . وبالفعل فان اطفال الاوساط المثقفة قد برهنوا على تفوقهم مدة بداية تعلم القراءة والكتابة والحساب وذلك بفضل معونة الاسرة .

ثم ان عدم النجاح بالمدرسة الابتدائية يعزى اساسا الى ظروف التعلم السائدة فيها ، كما يعزى الى الطرق وكفاءة المعلمين وبالخصوص الى الصورة السريعة التى تعلم بها القراءة اعتمادا على المنافسة بين الاطفال . فان ثلاثين بالمائة من المستمرين يكونون قد قرروا مصيرهم الدراسى نهائيا بالسنة الاولى من التعليم الابتدائى . واذا ما بسطنا الامور قلنا : إن الاطفال الذين يتقدمون لدخول المدرسة الابتدائية ينتمون عادة الى فيئتين .

ـ وفئة قليلة العدد من الاطفال المحظوظين يجدون لدى أسرهم سندا وجدانيا ولفظيا يتيح لهم الانتفاع بما يقدم لهم من تعليم .

ـ وفئة كثيرة العدد من الاطفال مكبليـن ومعـوقين من جـراء المستـوى الضئيل الذى تتمتع به اسرهم ثقافيا.فيصبح من الاكيد أو الاوكد القيام بعمل جد مبكر يكون « تعويضـا » ومحاولة للتخفيف من عـدم المساواة الناشئـة عن الظروف اللغويـة والاجتماعية والثقافيـة والوجدانية التى لها دورها فى السنوات الاولى من الحياة والتى قد لا تكون مواتية لنمو افصاح الطفل وبنـاء شخصيتـه .

رياض الاطفال للجميع :

من البديهى والمتعارف ان رياض الاطفال ضرورية لتفتح الصبى . لـذا يفضل انينتفع بها اكثر عدد ممكـن من الاطفال ولا سيما الذين يكونون فـى اشد الحاجة الى ذلك : اى الاطفال الذين يكونون فى بيئات اجتماعية وثقافية عير محظوظـــــة .

فالمهم ـ فى رأيى ـ وقد امكننا ترسيم كافة الاطفال الذين تبلـغ سنهـم العاشـرة ان تبادر باحداث رياض للاطفال فـى كل مكان من الجمهورية فلقد كانت روضة الاطفال تعتبر بادىء ذى بدء مكان حراسة متسم بسمة اجتماعية بحت لانها تمد يد المساعدة للامهات اللواتى يعملن خارج منازلهن . اما اليوم فلقد نمت الوظيفة التربوية للروضة الى حد انه اطلق عليها اسم « التربية ما قبل الدراســـة » .

والتربية بالروضة ترتكز على الذات . فهى تهتم فى زمن مبكر جدا بمصير كل طفل كفرد ، لتعينه على السمو فى حياته الغذائيةولتعينه على انماء طاقاته ومؤهلاته التى ستتيح له فيما بعد تسيير نفســه بنفســه . ولكـن ما هى المقاصد التى تهدف اليها رياض الاطفال ، ومدارس الامومة ؟

هناك خمسة مقاصد هامة تهدف اليها تربية ما قبل الدراسة .

1) انها تهدف الى تحقيق الانتقال من طور الطفولة .

2) انها تهدف الى انماء اقتدار التعبير لدى الطفل .

3) انها تهدف الى تكييفه اجتماعيا وفكريـــا .

4) انها تعده لما ينتظره بالمدرسة الابتدائية من دروس دون ان تقوم بارغامه على تعلم مضبوط ، لكن بانماء وظائف تكون دعامة لهذه الاعمال : كالاقتدار على تنظيم الفضاء والزمن .

5) انها تهدف ايضا الى البحث عن بوادر كل خلل وكل العراقيل التى تكبل بعض الاطفال ، فلا بد اذن من ان تكتشف العوائق مبكرا حتى يصبح الاهتمام بالعلاج المبكر ممكنا عوض التدخل بعد استفحال الامر .

ونظرا لكونها تهتم بتلبية رغبات الصبيان المادية والوجدانية والفزيلوجية والحسية الحركية وتهتم بحاجتهم الى التعبير والابتكار والخلق وتبليغ الاراء والاكتشاف من مختلف ما تقدمه من انشطة توفقها حسب طاقة واقتدار كل صبي ، فان الروضة تتوخى الطرق النشطة التى ترمى الى تنشيط الطفل واقتداره على التبليغ . فهى تحرص فى جو ملؤه الابتهاج والمرح والاطمئنان على ايقاظ وظائف شتى تكون فى حالة سبات وهى تثير محاولة التفكير والشعور كما تثير الحاجة الى التعبير . فان جميع ما يقوم به الصبية من حركات : ألعابا كانت أو رياضة بدنية ، أو اشغالا يدوية أو افصاحا أو نشيدا انما تشكل فى واقع الامر نماذج مختلفة من التعبير وانماطا خاصة من الافصاح .

ترك المجال للحركة ومفعول ذلك على النفس :

ان الطفل ميال الى الحركة ، فهو ينفق من طاقته بلا هوادة . ذلك انه يلذ له العيش فى نشاط دائب ثم انه يكون فى حاجة الى اكتساب مزيد الرشاقة ومزيد الحرية ومزيد الدقة والاتزان حتى يمكنه فى السادسة من عمره التحكم فى الحركة التى ستفتح له ابواب التعلم المدرسي وفى تلك الظروف بالذات يتبلور لدى الصبى الرسم المبسط للجسم وهو عبارة عن الصورة التى يتمثلها الصبى لجسمه اما هذه الصورة التى يحملها فى داخله فهى التى تتيح له ادراك ذاته فى الفضاء . وتعتمد الروضة كذلك اهتمام الطفل بجسده لتحمله على القيام بتجارب يتدرج فيها حسيا : كأن يسعى أن يقفز أو يتسلق أو يتدرج على الارض أو يقف فى اتزان .. الى آخره . فان كل هذه الانشطة التى تنمى المادة والمرونة والتحكم فى الحركة ستكون فيما بعد منطلقا للتعبير عما يدركه الجسم وللترجمة عنه بالكلام والكتابة بحيث يكون التطور من « الادراك والنشاط » الى الافصاح والتصور عن طريق الرسم .

فباكتشافه لجسمه والتحكم فيه يتدرج الطفل نحو مكتسبات زمانية . فضائية تعينه على تحقيق هويته الجسمية اذ سيكون جسمه دعامة لبناء شخصيته .

اللعب والنشاط البدني :

ليس هناك نشاط اكثر تلقائية واقرب من الغريزة وبالتالي ادعى للتعبير من اللعب اذ يلبي اللعب حاجة في الطفل حيوية وملحة . ونظرا لكون الطفل يشكل امرا بالقوة سيتحقق بالفعل فيما بعد ، فانه يكون في شديد الحاجة الى الحركة . فالطفل الذي لا يلعب انما هو مريض او ان شئت محبط ومعطل من قبل الانسان الراشد . فانما يسلط عليه من عدم الحراك انما هو امر مناقض لطبيعته ولقد قيل : إن الطفل أبو الانسان الراشد . فمنذ نعومة اظفاره يميل الى الاقتداء بالكبار ، فتراه يحاول تقليد اوليائه عن طريق احسن وسيلة لديه ، اي اللعب ، وعن طريق تعويض امكانياته البدنية الضعيفة بخيال متسع الارجاء .

ان اللعب بالنسبة الى الطفل لا يعني النشاط السطحي ذلك انه بواسطته يكتشف ذاته وإمكاناته وبالتالي يكتشف الصعوبة فلا يجوز اذن اعتبار اللعب كجزاء لاعداد مدرسية ممتازة . فهو لدى الطفل ضروري كضرورة الحنان والعطف .

وقد يمزج اللعب بالتمارين الايقاعية التي تنمي وثوق الحركات في الزمن والفضاء لان الايقاع انما يعني نشاطا وحركية منظمة وهو يعني ايضا تحكما عضليا وبالتالي تربية للارادة وضبطا للنفس وشعورا بالتعاون .

ان اللعب لدى الطفل ، اذا كان تلقائيا ، يحتل مكانة مرموقة بالروضة . فالمهارة والحذق بالنسبة الى المربي هو التدخل بكل تكتم في لعب الطفل للاشارة الى حركات تعين على نمو القوى الناشئة ذلك ان الطفل الذي يجري ويقفز ويتسلق تلقائيا في غير كلل قد ياخذ في البكاء حين نضطره الى القيام بنفس النشاط ولا يجوز الحديث عن ذلك الالتزام الشخصي وتلك القوة المرحة اللتين تتالف منهما الحركية الباطنة لدى كل طفل ولا يجوز الحديث عن تربية الحركة ما لم نقم وزنا للتلقائية والحرية اللتين تطبعان اللعب الحركي بطابعهما .

وليس تعنى حرية اللعب الفوضى والصخب لان اللعب له قواعده الضمنية وقوانينه المحددة من قبل التقليد والمحترمة لدى الطفل . ولئن كان الراشد الكهل يراوغ ويزور الامور فالصبي لا يراوغ ولا يزور . وما برنامج الروضة سوى ان تمنح الثقة للطفل وان تترك له مجال المبادرة وان تشجعه على الحركة والعمل والتعبير الحر .

فان هذا البرنامج يمنح الصحة والمرح وينمى الاقتدار على الخلق وروح الملاحظة كما ينمى الحكم والحافظة ويتيح بلورة طبع الطفل .

التصوير والاشغال اليدوية :

ينتمى التصوير والاشغال اليدوية الى انشطة الطفل التعبيرية فهو يكتسب مفهومي اللون والقالب ويتعلم الافصاح عما كان يعبر عنه بالتصوير والايماء والاشارة .

وتقول الآنسة سورجان المختصة الكبيرة فى رياض الاطفال والتى كانت قد ادارت ترشيح المعلمات بتونس منذ 50 سنة خلت : « ان الاطفال يتوقون دوما الى صنع أشياء بأيديهم وبواسطة أدوات الكلام والالفاظ وبالجسم بأسره حين يجرى الاطفال ويرقصون ، فهم يتوقون الى صنع اشياء يعبرون بها عن ذواتهم ذلك الصنع المتسم بطابع التحويل الذى يطوق الطفل الى القيام به انما يمنحه الابتهاج ويعينه على فرض ذاته ويبين لديه سلطانه على الاشياء . فهو بمثابة المنبه لتربيته الاخلاقية والجمالية ، المثير لنشاطه الفكرى وهذا البيداغوجى الكبير هوبارت يقول :

« يمكن القول بان اليد مثل الدماغ هى عضو للتفكير ، وان تربية اليد تعتبر أكثر من تربية الحواس تربية للذكاء » فان التأثير على المادة يجند كل وظائف الذكاء ، فباستعماله وبتحويره للمواد يكتشف الطفل مميزاتها كما يكتشف مميزات الاشياء .. فهو يكتشف اشكالها وابعادها وصلابتها ووزنها الى آخره . وهو كذلك يكتشف العلاقات التى تكون بين الاشياء (من حيث الوضع والاتجاه بالخصوص) مكتسبا بذلك ، مفهومي الاتزان والفضاء .

ومما تجدر ملاحظته ان تشوفه يكون دوما فى يقظة وانتباه فهو يتوق الى المعرفة سائلا :

كيف صنع هذا ؟ لم هو هكذا ؟ ماذا فى وسطه ؟ واخيرا فهو فى حاجة الى ان يبتكر لذا نراه يبذل مجهود التفكير ومجهود الاختيار .

ان لتمارين التجسيم بالصلصال اهمية كبيرة بين مختلف التمارين التى تهتم بصنع الاشياء . انها هامة لانها قابلة اكثر من غيرها الى الاتسام بفردية الطفل وشخصيته ثم ان ممارسة الطين والتراب امر طبيعى بالنسبة الى الطفل كما هو طبيعى بالنسبة الى المؤهلات البدائية . فهو يتيح له منح قالب وحقيقة للمخلوقات الغريبة التى تغذى احلامه . وعلى قدر استجابة وطاعة اليد فى ممارسة المواد والادوات تجده قادرا ، انطلاقا من ذكرياته وملاحظاته على خلق كائنات ينفث فيها الحياة حسب مشروع ما ينفك يعيده ويحوره . فهو يشعر حينذاك بابتهاج منقطع النظير وربما بابتهاج الفنان فى اوج حقيقته . وبما ان اليد هى مدخل الذكاء فانه يترتب عن كل ذلك تقدم فى الافصاح واللغة .

وهكذا يتبين لنا ان للعمل اليدوى قمة تحريرية وتربوية مثيرة تجعله يحتل المكانة المرموقة بروضة الاطفال حيث تنشأ مفاهيم جوهرية (كمفهومى الزمان والفضاء) يستغلها الطفل فيما بعد ابان التعليم الفكرى .

تمارين الملاحظة :

لتنمية الخيال علاقة بالتربية بأسرها . اما دافع المساهمة فى هذه التنمية وهو يكسب طرق التربية بالروضة اتجاها معينا . ومما تجدر ملاحظته ان تمارين الملاحظة هى التى تزود خيال الطفل بالغذاء النافع الاكثر استعمالا فهى تمد الطفل بصور حقيقية . ذلك انه متى ازدادت هذه الصور اثراء تركت المزيد من الذكريات والمزيد من الامكانيات التى يستخدمها فى بناءاته الخيالية . ويبدو مما تقدم ان الروضة فى نفس الوقت الذى تمكن فيه الصبى من الواقع تعده للتحرر من هذا الواقع . والانطلاق نحو الواقع .

وبالطبع فليست هناك معرفة انفس من التى تدخل الصبى فى معرفة الطبيعة الدقيقة وفى عالم الخيال فيما وراء عالم الواقع فالاطفال يبنون عالمهم الخاص انطلاقا من معلومات صحيحة وبواسطة الاحجار المتناثرة بحافظتهم .

الكلام :

يبدو الكلام للطفل كاداة عجيبة تفتح له عالم الراشدين وكسلطان يعينه على تحقيق ذاته . فهو يتيح له النشاط المجرد لا سيما حين تستقل المفردات

بذاتها وتصبح غير لاصقة بالشيء المدلول بحيث تعوض تدريجيا الشيء والوضعية ، والتجربة .

ثم ان ارتقاء الصبي الى مستوى الكلام انما هو تكيف اجتماعي لا يتم الا بتأثير الوسط وبمشاركة الطفل التامة . فهو مجهود تساهم فيه انفعالاته ومبادراته وارادته وذكاؤه .

وما الروضة الا بيئة تيسر نمو الكلام بالدرجة الاولى فهى تتيح فرصا للحديث واسبابا ودوافع كما تقدم له مادة تتجسم فى المفردات والقوالب النحوية . فان ذلك « الاستحمام من الكلام » الذى يدعى الطفل اليه انما هو ميسر لتعلمه لانه يكون كمن يتشبع منه ويروى .

والطفل يعبر عن مختلف شواهد الحياة اذ يهمه كل ما هو نشاط وتحول وحركة . اما الروضة فهى ترغب فى الانشطة الحرة وتحفز على الكلام مدمجة الطفل فى نفس الوقت :

ــ ضمن الفضاء ، باكسابه مفاهيم ابتدائية لها علاقة بالاوضاع النسبية كاليمين واليسار ، والامام والخلف الى آخره ..)

ــ ضمن الزمن باستخدام ذكريات الطفل .

ــ ضمن مجتمع يتوسع اكثر فاكثر وذلك باللجوء الى العاب تضطر الطفل الى التوجه نحو الآخرين والى اعتبارهم .

هذا ومن بين المواضيع التى تلهم تمارين الكلام هذه نجد الحكاية التى بها تكون ساعة سعادة الطفل ، حيث يترقبها بفارغ صبر والتى لها مفعول كبير على تقدير قيمة الصمت أحسن تقدير لضرورة المطالبة به قبل الشروع فى القصة . فان هذا الصمت انما هو بمثابة التمرن لانه يعلم الصبى الانصات ويكسبه الانتباه الضرورى المطلوب فى كل عمل ذكى .

وبالاضافة الى ما تزود به الطفل من مفردات جديدة تثرى رصيده اللغوى فالقصص الجميلة التى تحكيها الروضة تأتى بعالم منعتق لكن يتضمن اقساطا لا بأس بها من عناصر الواقع لكنه يتضمن قسطا لا بأس به من عناصر الواقع المجرب الذى يتيح للطفل ــ دون بذل جهد ــ الانطلاق نحو « عوالم أخرى » .

هذا ولئـن كانت القصص ما زالت بعـد مرور آلاف السنين ، علـى قيد الحياة ، تشد الطفل اليها شدا ، لانها تغذى خياله وبذلـك تمنحـه القـدرة على الانفلات من ربقة الواقع وهو أمر ضرورى .

وحتى نعلمه الكلام ونرتقى به الى الافصاح البين والسرد الشفـاهى المنظم نحويا ، تدعو الروضة الطفل الى التعبير بمفرده . فهى تثيره ليعبر تلقائيـا لا بالاجابة عن اسئلة فحسب لكن بتعويده ابداء الراى الامر الذى يستوجـب بيداغوجيا أن نهتم بالطفل ضمن اقسام يكون عدد الاطفال فيها قليـلا وتناط عهدتها بمربين اكفاء .

وفعلا فان كثرة العدد تميت البيداغوجيا وتثير المهاجمة . ففى كثرة عـدد الاطفال ازداد اضطرار المربى الى التصلب والسيطرة .

فـان الارهاق والتوتـر الناشئين عن صخـب عدد كبيـر من التلاميـذ لا يتبحان التقدم المرجو ولا يمكنان من تقديم نموذج للـراشد يطمئن اليـه فى حين ان حمل صورة للراشد جيدة لها اهميـة عظمى فى ذلك الطور من عمـر الطفل .

المـــوسيقـى :

شبهـت الروضة بعش تزقزق به العصافير طيلة النهار فـان الموسيقـى تنصهر تمام الانصهار مع كل نوع من الانشطة ان الاطفال يترنمون للترنم . لكن ايضا للمشى واللعب والحساب . فالنشيد يمازج كل هذه التماريـن ، فهو يتمم حصـة الافصاح ويوضح الحساب ويدير حصة الاناشيد الايقاعيـة والالعاب والرقصات . وهو يصـاحب حصص الـرسم والنحت والتصـوير ويشرف على العودة الى الهدوء ، فكل موسيقى فى هـذه المـدينة الصغيـرة المترنمة ـ حيث تعود الفنون الى ينبوعها ـ متقمصة روح الطفولة التى تنشد بواسطتها التعبير عن ذاتهـا .

وليست المسالة فى تعليم ايقاعات مفروضة . وأنما فى ترك الرغبة الـى التبليغ تتجلى فى حركـات تلقـائية للجسـد كلـه . أوليست الموسيقى فى كنهها والشعر والرقص فى كافة البلدان ، انماطا من التعبير تتجـلى فيهـا روح الانسان ؟.

القراءة والحساب وروضة الاطفال :

لا تهدف الروضة الى « تعليم القراءة » كما أنها لا تهدف الى تعليم الحساب « فانها لا ترمى الى اى مقصد تعليمي » اذ ليس لها برنامج وليس لها أى غرض تبلغ اليه في زمن محدود . فان مشاغلها الاساسية تنحصر فى اكتساب الاطفال جملة من العادات الفكرية . وفى تدريبهم على الإدراك والتفكر والمقارنة والاكتشاف حتى يمكن ، اذا ما جاء الابان ، تقبل المعلومات الاساسية . فهى تتوق الى منح الطفل مبادىء معرفة المكتوب فى بيئة واقعية حيث لا تكون القراءة كمادة منعزلة ، لكن كنشاط له شديد الوثوق بالحياة فى الفصل . فان العمل ينظم انطلاقا من اهتمامات الاطفال وامكاناتهم اذ هم ، باستثناء البعض ، لم يبلغوا بعد السن الذهبية للقراءة .

ثم ان اكتساب القراءة لا يحصل عن طريق تمارين آلية . فلا بد من ان يدلى الصبى بحاجته ورغبته الى القراءة . وقد اصبح يقيم وزنا للرمز « الدال على المعنى » الكفيل بتكوين مجموعة من الاختلاجات فى نفس الطفل شبيهة بالتى يشعر بها وسط الحياة .

ولئن كان التدريب على القراءة منحصرا فى مبادرة للتعلم او فى تعلم يكون قبل اوانه ، متسرعا وحسب تقنيات تقليدية . فالاجدر ان يحكم على هذا التعلم بعدم النجاح لان التلاميذ الذين يقاسون هذا الويل سيبارحون الروضة وفى أذهانهم صورة مبهمة عن القراءة ، كونها ليست من قبيل جنات عدن الموصوفة بل من قبل الويل الذى تسبب لهم فى مقاساة الوان من اللوم والتوبيخ والتهديد ادى بهم فى النهاية الى خيبة سيعسر معها اعادة تجربة مماثلة ، ويا للاسف ! بالسنة الاولى من التعليم الابتدائى . فان المبادرة الحق بالتدريب على القراءة لا تكون ممكنة الا اذا ما كانت تسير بتأن وحذر معدلة تدرجها مع التطور التلقائى لاذهان الاطفال الذين يكونون قد بلغوا بحق النضج المطلوب .

اما تعليم الحساب فى الروضة فلا يدعو ألشان فيه الى تدريب الاطفال على العد . فذلك دور المدرسة الابتدائية فيما بعد . بيد انه لا ينبغى ترك الوقت الذى يبدا فيه الطفل يهتم بالاعداد يمر دون استثمار .

ان اول اتصال بالاعداد يكون اثناء حياة الاطفال ، فمن الواجب اذن الربط بين عملية بدء الحساب والاحداث اليومية. ان الاعداد هى فى أول الامر صفات متعلقة بمجموعات من الاشياء ، فى حين ان العمليات هى افعال مسلطة

على المجموعات ، وتصبح الاعداد والعمليات مواضيع للنظر ألعقلي المجرد الا فيما بعد أى فى وقت متأخر ، ومتأخر جدا ، تتيحها الحياة اليومية فى الفصل وخارجه هى التى تمنح الطفل المعرفة الاولى للاعداد والاهتمام بالعمليات . يعيش الاطفال فى المدرسة متجمعين مع بعضهم البعض ومن الجائز ان يولد تجمعهم فرصا عديدة تسمح بالتعبير عن الملاحظة المنجزة أو العمل الحاصل تعبيرا عدديا ثم ان الحياة الخارجية التى تدخل الفصل دخولا واسعا ، تجلب كذلك فرصا للعد ، فالاتصالات الاولى بالحساب اذا ما ارتبطت بحياة الطفل ذاتها وتوجهت بحسب اهتمامه التلقائى ، لا يمكن ان ترضخ لبرنامج متصلب .

هنالك اذن اتجاهات ثلاث فى التدريب على الاعداد بالروضة .

اولا : فى استثمار كل ما توفره الحياة العادية للطفل فى الميدان ألعددى استثمارا حاذقا .

ثانيا : فى تنظيم هذه المكتسبات واستخدامها بواسطة تمارين ملائمة يقع تسييرها بمنهجية محكمة .

ثالثا : فى تهيئة الفكر لتقبل هذه المعلومات وذلك بتنمية منطق الطفل ان تطبيق هذه المبادىء يسمح للروضة باعداد افكار تكون متفتحة لتقبل اولى مفاهيم الحساب الحقيقى .

تربية ما قبل الدراسة فى العالم :

ان تربية ما قبل الدراسة هى فى كل مكان من العالم فى طريق التوسع بل هى فى طريق التعميم السريع فى البلدان المتقدمة ، وبالرغم من صعوباتها فان اقطار العالم الثالث ذاتها لا تتردد فى اعتبار الروضة أساس كل تربية . « انها ليست من الكماليات ، بل هى ضرورة » هذا ما كتبته رئيسة المنظمة العالمية لتربية ما قبل الدراسة .(C.M.E.P.) ويمتد ميدان تربية ما قبل الدراسة على فترات من السن تختلف بحسب البلدان من ذلك ان هذه التسمية تطغى آمادا ، آماد تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات فى البلاد السكندينافية ويوغسلافيا ، وبين ثلاث وخمس سنوات فى المملكة المتحدة ، وبين ثلاث وست سنوات فى اغلب الاقطار الاخرى ، ومن بينها اليابان وامريكا الشمالية . هذا وتسهل تربية ما قبل الدراسة فى بعض البلدان قبل سن الثالثة فموعدها الثانية والنصف من العمر فى بلجيكا ، والثانية فى فرنسا . اما السويد ، فان مدارس الوقت الكامل فيه تقبل الاطفال نظريا

فيما بين سن ستة أشهر وسبع سنين واما فترات الدراسة فهى مختلفة ايضا : فان الوقت الكامل هو الاكثر استعمالا ، بيد انه قد يتداول مع الوقت الجزئى كما هو الشأن فى البلاد السكندينافية .

وتثبت الاحصائيات فى بلدان عديدة قيمة الدور الذى تؤديه الروضة وحميد اثرها فى مواصلة الدراسة · ذلك انه بقدر ما يبكر الاطفال فى مخالطة الروضة بقدر ما يقل رسوبهم ، وبالتالى تزداد حظوظ انتهائهم الى اقسام السنة الاولى من التعليم الثانوى ، وهذا ما أثبتته بعض احصائيات الدخول الى السنة الاولى من التعليم الثانوى ·

ولاختم هذه الكلمة اقول : انه فى روضة الاطفال وفى نوع آخر من الاقسام حيث تكون للانشطة اليدوية مكانة هامة وقيمة لائقة يمكن للطفل فى نفس الوقت ان يعبر من خلال ما يقوم به من رسوم واعمال نحتية وألعاب وان يكتسب فى التحام وتفاعل مع المحيط مستثمرا لا معرفة جامدة فحسب بل جملة من المعارف على العموم ومعرفة عملية على الاخص .

فان كل ذلك يوفر للاطفال ما يستحقون من الوان الفرح والغبطة التى بها تنمو شخصياتهم .

ولذا فقد آن الاوان ليكون لتونس على غرار البلدان المتقدمة شبكة واسعة من رياض الاطفال المشرقة الفسيحة الجذابة وهى البلاد التى انشغلت الى حد الآن بتركيز قواعد تعليمها الابتدائى والثانوى والتقنى والعالى تركيزا محكما .

فلنا هنا عمل هام يتطلب الانجاز وينبغى لمخططاتنا المقبلة ان يعطيه المكانة التى يستحقها . والشأن يتعلق بتحسين الظروف التى يستطيع فيها أطفالنا رجال الغد ان يعيشوا فى صحة وسعادة .

عزوز عبد النبي

لا غالبَ إلّا الحبّ ..!

شعر : الصّادق شرف
(أبو وجدان)

أن يتغلب الحب على حقد الشباب فذلك هو الحب العظيم ، أما الحب الذى يتغلب على حقد الناس جميعا فذلك هو الحب الأعظم .

الليل يهتف ، شَادِيـًا ؟ أمْ عاتِبًا ؟
كمْ في هتافِهِ بتّ قلبًا ذَائِبًا !
الوجدُ عاودني .. فأضوى غربتي ..
منْ بعد ما قد قلت : أمسى غارِبًا ..
أتعودُ لي بالكأس يا ولهي ؟ على
نخْب الذي قد عاد أسْهَرُ شَارِبًا ..
والليلُ يصْخَبُ في فجَاجِ لِقَائنَا ..
فرِحاً بنَا .. كمْ باتَ ليلي صاخبًا !
وسألتُ : عادت ؟ أم أرَانيَ وَاهِمًا ؟
فاذا الجوابُ معَ السؤالِ تضارَبَا ..
واذا بِهَا تجري .. ويَعْلو صَوْتُهَا :
— « مَاذَا يُمغْـطُنَا لكَي نَتَقَارَبَا؟ »
قلتُ : — السماءُ همتْ .. فقالت : — « بل إلى
عطش الترابِ الغيثُ أصبح هاربا » !

عـانقتُهـا .. فبدا الوجـودُ بـأسره
ملكِي .. وآلهـةُ الـوجـود حـواجِبـا
وسألتُها : ـ أمنَ الترابِ بَعَثْتِنِـي ؟
يا بذرةً معهـا التـرابُ تَجَـاوبَـا ..
كم منْ لهيبٍ فيـهِ نـارٌ وانطفَـى !
وأرى لهيبِـي مـنْ رَمَـادٍ نـاشبَـا
بينَ النشُوبِ سمعت منها هـاتِفاً :
ـ « يا مرْحباً ! » والصوتُ كان غياهِبَا ..
وتَنهَّدتْ .. والليلُ يهزم بعضَـه ..
وترنَّمتْ .. والفجـر هَـلَ مواكِبَا ..
قالت : ـ«رجعتُ .. فهل حسبتَ لعودتي؟»
وأجبتُ : ـ بل ما كنتُ إلاَّ حَـاسبَـا .
قالت : ـ « لقد أدْبنْتُ أنك غـائبٌ ! »
ـ ماكنتُ في استحضار غيركِ غـائبا ..
كـذبوا علـيَّ .. فمـا غيابي همَّهُـمْ
إلا لأنِّي كنتُ خلفَـكِ ذَاهِبَـا .
قـالتْ وقد هَجَمَتْ عـليَّ بقبلـة :
ـ «أيئِسْتَ!؟» قلتُ :ـترَينَ ثغري شاحبا ؟
قالت : ـ «بلى !» فأجبت : ـ ميزة عصرنا
أن الثغورَ غدَتْ قناعاً كـاذِبَـا !
قالت : ـ « وثغري ؟ » قلت : ـ ثغرُكِ إن يَنُبْ
عمَّنْ عشقتُ .. فكمْ رَفَضْتُ النَّائِبَا !

قالت : – « أرَى عينَيك غائصتين في
عَينيّ ! » قلتُ : – المنفذان تَوَاعبَا .
ها قد خرجتُ إليكِ منّي .. فاخرجي
لي منكِ ، ولنُلْغِ المَدَى والحَاجِبَا .
قالت : – «أحبك ...» قلت: – حبي مثلما
تبغين .. إلاّ أن تحبّي كاذبا !
– «ذاك الذي أحببتُ ..» قالت ، قلت : يا
مسلوبة ..! قالت : – « أجل .. يا سالبا..!
.. إنّي أحبُّكَ ... » والسؤالُ يلفُّها :
– «سافرتَ لي ؟» قلتُ : – ابتَكَرْتُ سحائبا
والريحُ تحملني إليكِ غمامةً ..
ما عادَ بي – أبدًا – بساطي خائبَا
الشوق أسرجَ لي الغمامَ إليكِ .. لَوْ
يرتَدّ بي .. ما كنتُ متنه راكبا .
يا مركبي – المحبوب حَثّ جَوَادَهُ –
هيّا بنا .. الْحَقْ بِهِ .. مهما نَبَا
فاذا الذي قَدْ كَانَ أصغرَ بارقٍ
من ذاته ، أمسَى إليّ كَوَاكِبَا

* * *

ألقاكِ يا ولهي .. سبيّةَ (وجْدَةٍ)
بل (تونس الخضراءُ) أجملُ ما سبا !
ألقاكِ يا وجعي .. وأنتِ فراشةٌ
هَبَطَتْ وِهَادًا ؟ أمْ صعدتُ بها رُبَى ؟

والثوبُ أبيضُ ، هلْ ملائِكَةُ الهوى ؟
أمْ أنتِ راهبةٌ ؟ قتلتِ الراهبَا !
ومساؤنَا قد كنتِ بحرَ أصيلِه ..
ورجوتني في البحرِ أمسي القاربَا ..
وسبحتِ بي .. والقاربُ الهيمانُ لا
ينفكّ نهبا للخضمِّ .. ونَاهِبَا ..
والبدرُ يسكبُ فوقنَا مِنْ نَوْلِه ...
خُصُلاتِ شعركِ ؟ أم سَبِيكاً ذائِبَا ؟
وسكبْتُ فيكِ على التلهُّبِ قبلةً ..
وسكبْتِها ، بيْننَا الجميعُ مساكبَا
ودفقتُ من عَيْنَيَّ حلماً وارفاً
حبلتْ به عيناكِ كوناً لاَجِبَا
وتمخَّضتْ عيناكِ بالمولود .. ما إن
ذَاقَ نهدَ هُيامنا .. حتى حَبَا
لم يكتملْ نَهْدُ التَّوَاجُدِ بيننَا
حتى استوَى المولودُ طفلاً لاَعِبَا
يا طفلُ لا تلعبْ بنا .. فحبيبتي
لمَّا تَزَلْ أُمّاً .. ولَمْ أفتَا أبَا !
يا طفلُ .. بل يا حبّ .. كيف تقولُ لي :
— «منْ يهوَ (أزهاري) سيلْقَ متاعبَا !؟»
هَلْ في الزّهورِ هزيمتِي ؟ والحبّ لا
إلاّه إلاّ (المغربية) غالبَا .

الصادق شرف

الشباب والأخلاق

بقلم : مبارك العمراني

لو رجعنا الى ماضى الشعوب وتاريخ الحضارة البشرية لوجدنا ان للشباب النصيب الاوفر فى بناء هذه الحضارة على اسس متينة سليمة باعتبار نظرته المثالية الى كل ما حوله من الاشياء ، هذه النظرة التى اوحاها اليه خياله الخصب وتصوره لعالم كله مثل وكله جمال وكمال . ذلك ان الشباب يمثل فترة من العمر يطغى فيها الحماس ويفور فيها الاحساس العارم ويظهر فيها التعلق الشديد بالمبادىء والطموح الى كل ما هو سام ورفيع مع ميل قوى الى الجديد سواء فى اسلوب الحياة او فى الطرق التى تعالج بها المشاكل ، فالشباب معناه : الحركية الدائبة والاستعداد المستمر للعمل والانجاز .

وبالمقارنة مع بعض الشعوب الاخرى نلاحظ أن شعبنا التونسى يمثل فيه الشباب نسبة هائلة ، فهو شعب شاب ولهذا فتأثيره فعال على حياته العملية وانتاجه ، ومن هنا كانت العناية الفائقة بشبابنا التونسى الطموح من طرف هذا النظام البورقيبى الفتى الذى رصد له الاعتمادات الضخمة وشيد له الهياكل الثقافية والرياضية وكون له ألاطار اللازم لنوعيته وتثقيفه وحمايته من اخطار الامراض المعنوية والمادية لاعتقاده بأن الشباب هو القوة الحقيقية التى يعتمد عليها فى كسب معركة التنمية التى نخوضها فى كل الميادين وعلى جميع الواجهات . غير ان بعض الشباب فى عمره هذا يمثل مشكلة بالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه بسبب ما يصدر عنه من تصرفات وانحرافات ، مما يجعلنا نتساءل كيف نعامل هذا الصنف من الشباب ؟ بحيث ليسوا اطفالا فنغفر لهم ونرجو اصلاحهم بالتربية القويمة والتنشئة الصالحة ولا هم صبيان يمكن ان نوجههم ونضبط سلوكهم فى شىء من الحزم حتى نقودهم الى سواء السبيل ، ولا هم رجال مسؤولون تمام المسؤولية لهم من كثرة التجارب وطول الخبرة وسعة المعرفة ما ينأى بهم عن الزلل ويبعد بهم عن الانحراف ..

ومن هنا يمكن ان نقول : إن هذا الصنف من الشبان يقفون عند مفترق الطرق بعد ان قطعوا مرحلة من حياتهم ليست بالقصيرة ، وعليهم ان يستانفوا السير مدفوعين بقوة الشباب وحيويته المتدفقة ليقطعوا مرحلة اخرى طويلة وشاقة ومحملة بشتى المسؤوليات . لكن هذا الاندفاع المفعم بالحيوية والنشاط المتجدد كثيرا ما يعقد حياتهم ويجعلها غير مامونة من الاخطار والعثرات لانهم يفتقرون الى الوان مختلفة من المعرفة التى يكتشفها الفرد بالنظر والتامل تارة وبالخبرة تارة اخرى .

واذا كان هناك شبه اجماع على لوم هذا الصنف من الشبان ومحاسبتهم على اخطائهم وتدهور أخلاقهم فان هناك انقساما فى الرأى حول اسباب هذا السلوك الشاذ وهذه الاخلاق الرديئة .

من المفكرين من يرجع اسباب هذه المشاكل كلها الى عبادة الشباب للمادة وانصرافهم عن القيم والمثل العليا التى تهدى الى الطريق السوى بحيث أصبح هذا الصنف من الشباب شغوفا بالملاهي وارتياد دور السنما ومشاهدة ما يعرض فيها من الوان القصص المصورة بطريقة فيها الكثير من الزيف والبعد عن الواقع الذى يعيشه الشباب وقس على هذا ما تجود به التلفزة من بعض المشاهد العنيفة .

والشبان لم تتكون لديهم بعد ملكة التفريق بين الغث والسمين والتافه والرصين ، بل هم البعض منهم أن يقضى اوقات فراغه بطرق تغلب عليها السلبية .

ويرى فريق آخر من الدارسين لمشاكل الشباب أن السبب فى هذه السطحية فى التفكير وتلك الانحرافات لدى بعض شبابنا وهذا التحيز لانفسهم وهذه السهولة فى الانخداع بالمظاهر انما يرجع الى عدم تحملهم لمشقة الاطلاع والبحث حتى تتسنى لهم الاحاطة بالامور والالمام بالمشاكل واستيعاب المسائل المتعلقة بشؤون حياتهم والبيئة والمحيط الذى يعيشونه .

اما الفريق الثالث فيرى ان اسباب هذه التصرفات الغريبة من بعض الشبان انما ترجع الى كونهم غير ناضجين فى تفكيرهم وغير جادين فيما يقومون به من أعمال ولا يتعلقون الا بالسهل الذى لا يحتاج الى كثير من الجهد أو عناء التفكير وعلى ضوء هذه الاراء المختلفة حول سلوك الشباب وتصرفاته الشاذة فى بعض الاحيان يمكن القول بأن شبابنا فى هذه المرحلة من حياته يحتاج الى كثير من

الرعاية والعناية والتعهد المستمر حتى يشب على الاخلاق الفاضلة والسلوك القويم ذلك ان الاخلاق صفة نفسية داخلية لها مظهر خارجي نسميه سلوكا مثل الشجرة التى نعرفها بالثمرة فنقول : انها شجرة طيبة او شجرة خبيثة ، كذلك سلوك الانسان يكون طيبا اذا كانت اخلاقه فاضلة ويكون رديئا اذا كانت الاخلاق منحطة .

ويعرف « جون ديوى » الاخلاق بانها : مجموع رغائب الفرد وميوله الفعالة التى تجعله دائما على استعداد للاتيان ببعض الافعال ومغرما ببعض النتائج وفى الوقت نفسه كارها لبعض الافعال والنتائج الاخرى . فالاخلاق هى مجموع العادات والتقاليد وأنماط السلوك التى تقبلها الجماعة والقيم الخلقية تكون مرتبطة عادة بظروف اجتماعية وما تقبله هذه الجماعة قد ترفضه جماعة أخرى وما يعتبر خيرا فى مجتمع ما قد يعتبر شرا فى مجتمع آخر .

والشباب لا ينظر الى المجتمع الا بمنظار الاسود والابيض كما يقولون .. باعتباره لا يعرف الاعتدال وهو اذا تربى تربية عالية واكتسب قيما رفيعة فى اسرته ثم خرج الى المجتمع فوجد الكذب والخيانة والنفاق والرياء وكل المتناقضات شعر بصدمة عنيفة تهز كيانه ، ومن هنا تظهر جسامة المسؤولية الملقاة على كاهل الساهرين على حظوظ هذا الشباب .

لقد اتفقت كل المبادىء والاديان على اهمية الاخلاق كعنصر من العناصر الاساسية التى تحمى الامم من الانهيار والضياع وتقيها شر التدهور والانحطاط يقول الاستاذ ويلز : « **لو بذل الانسان فى سبيل السيطرة على كبح جماح نفسه بعض ما يبذله من الجهد فى السيطرة على قوى الطبيعة لكان عالمنا اليوم عالم طهارة وسعادة** » . لكن واقولها بكل أسف : ان عالمنا اليوم فقد اتزانه وكثرت مآسيه وأحزانه وباع بابخس الثمن اخلاقه وايمانه واختلط فيه الحابل بالنابل نتيجة الهوة السحيقة التى تفصل بين تقدمه المادى والخلقى حيث وصل من ناحية الى قمة الاعجاز وتدحرج من ناحية ثانية الى هوة الحضيض ومرتبة الحيوان الاعجم الذى لا هم له الا اشباع غرائزه وارضاء شهواته المادية باى ثمن، ذلك لانه ابتعد عن كل خلق قويم هذا الخلق الذى اذا اتصف به شخص ما انعكست عليه عدة صفات :

منها التماسك الذى هو التماثل والتشابه والتخلق بنفس الخلق فى جميع المواقف التى يلزم فيها ذلك فلا يكون الرجل مذبذبا متناقضا يوصف بالشجاعة والبطولة فى موقف ثم يحجم فى موطن آخر يتطلب نفس التضحية والاقدام .

ومنها العزيمة والصلابة وهى لا تعنى الاندفاع الاحمق والتهور بدون عقل ولا بصيرة ولكن معناها ان يتدبر الانسان الامر ويتأمل فى الموقف ثم يشرع فى العمل وفق ما تقتضيه الحال .

ومنها ضبط النفس والسيطرة عليها باعتبارها « امارة بالسوء » فاذا زينت لشخص ما نفسه بان يحيد عن الطريق السوى وأن يذبح الفضيلة والشرف فلا بد ان يكون لديه من القدرة ما يكفى لكبح جماحها وارجاعها الى جادة الصواب .

ومنها التوجيه وهو القدرة على توجيه النفس وقيادتها باستقلال كامل عن الغير لان السلوك الخلقى الفاضل لا يتكون الا بالاعتماد على النفس واستخلاص العبر والنتائج من احتكاك الفرد وتفاعله مع الوسط الذى يعيش فيه ، وفى كل عمل خلقى هناك اشياء هامة لابد من مراعاتها مثل الحساسية لما يمكن أن يتضمنه موقف ما ، والنتائج المنجرة عنه واتخاذ القرار المعين الذى يتوقف على معلومات الشخص صاحب القرار والتروى والامعان فيما يجب عليه عمله بحيث يكون لديه هدف معين وتكون لديه القدرة على التبصر فى الامور كما تكون له الرغبة الملحة فى تنفيذ العمل وعدم التراخى فى ذلك .

وكذلك العادات وهى السلوك الذى يكتسب بالتمرن والاعادة ولابد ان نراعى فى تكوينها منفعتها للصالح العام ، كذلك العواطف ويجب ان تكون عواطف حب وخير وجمال .

ولا بد أن نلاحظ هنا ان الاخلاق تفقد قيمتها وجدواها عند اشتداد الازمات مثل المجاعات والحروب والكوارث التى تصيب العالم فتجعل الانسان وحشا ضاريا عديم التمييز بين الحسن والقبيح والطيب والخبيث.كما نلاحظ أيضا ان الخلق ينمو ببطء وهو نظام معقد تدخل فيه عدة مركبات مثل الغرائز وهى حركات تأخذ ديناميتها من داخلها ومن تكوينها ، ويجب ان تخضع لمبدأ يسيرها ويتحكم فيها .

على اننا قد نضر بالاخلاق اذا عرفناها تعريفا علميا جافا يفقدها تاثيرها وحيويتها خاصة وان هذا التاثير هو ما يهمنا من الاخلاق ، ومن هنا وجب علينا ان ننزع بها منزعا اجتماعيا وعند ذلك نجد لها تاثيرها فى المجتمع ، لان الاخلاق تتاثر وتؤثر فى الوسط الاجتماعى وبذلك نقول : ان الخلق عبارة

عن نشاط الفرد فى المجتمع وميوله اللازمة له نحـو نظم الجماعـة ومنشآتهـا واتجاهاته الفكرية نحو من يحيط به من الناس ، وبالتالى فان سلوك هذا الفرد يمكن ان تكون له مستويات اربعة :

ـ السلوك الغريزى الذى لا يتاثر الا بمفعول اللذة والالم .

ـ السلوك الذى يسيطر عليه الثواب والعقـاب الصادران مـن الـوسط الاجتماعى .

ـ السلوك الذى يتحكم فيه المدح والذم .

ـ السلوك الذى تتحكم فيه المثل العليا والقيم السامية ، وهو أرقى انواع السلوك حيث يسير الانسان بحسب ما يمليه عليه ضميره دون خوف من ثواب او عقاب او مدح او ذم ، وهذا هو السلوك الذى نريد ان يكون عليه شبابنالانه اذا بلغ هذا المستوى الرفيع من الاخلاق والتربية فانه يكون قد تحصن من كل الآفات التى تلقى به فى متاهات الفراغ والضياع . وهناك ثلاثة ميادين تتزعزع فيها الاخلاق وهى :

1) **الميدان الاول** : العائلة أو البيت حيث توضع البذور الاولى لنمو الشخصية ويتعلم الطفل الكلام ثم العادات والتقاليد والعرف والظواهر الاجتماعية المختلفة كما يتعلم الفرق بين الخطا والصواب والحسن والقبيح والحقـوق والواجبات والمبادىء الدينية . فالبيت هو المعمل الاول الذى يخرج الطفل اما بشرا سويا مستكملا لشروط الانسان او متجردا من كل ذلك لأن اغلب الامراض الخلقية كالانانية والجشع والفوضى وفقدان الثقة بالنفس وعدم الشعـور بالمسؤولية والرياء والنفاق انما تنتشر جرثومتها الاولى فى البيت فيعسر عـلى المدرسـة والمجتمع استئصالها بعد ان تزمن وتستفحل ، خاصة وان هذه العناصر المريضة تحمل الداء أينما حلت . فاذا اصطدمت بعناصر سليمة وقع صراع عنيف كثيرا ما يتغلب فيه المريض ـ بكل أسف ـ على السليم . ولعل هذا ما يفسر قوله صلى الله عليه وسلم : « **كل مولود يولـد على الفطـرة وأبـواه يهـودانه أو يمجسانه أو ينصرانه** » .

2) **الميـدان الثانى** : هو المدرسة ، ودورها خطير جدا فى بناء اخلاق النشء وهى قوة لا يستهان بها حيث تجمع ابناء هذا الجيل من رجال الغد فى صعيد

واحد لا فرق بين الغنى والفقير ، ولا بين الذكى والغبى ففى المدرسة يتسع الوقت امام الاطفال والشباب وتسنح لهم الفرص لتكييف انفسهم من جديد ذلك ان المعنى الحقيقى للمدرسة انما هو : الفراغ الذى يسمح للتخلص من مشاغل الحياة وتتحقق فيه حرية النمو والتكوين ، وان اعظم اثر خلقى تنتجه المدرسة لافرادها هو خبرة الحياة المشتركة فى ظلال العمل المشترك لمجتمع اختلف أفراده ، ومع ذلك فهو مجتمع موحد تضم افراده الرابطة المدرسية لان المدرسة تمتاز على غيرها من المؤسسات الاجتماعية فى أنها تتيح لابنائها فرصة ادارة شؤونهم وسياسة علاقاتهم تحت اشراف وتوجيه دقيق ومنظم .

3) **الميدان الثالث :** هو المجتمع ، وهو اخطر الميادين باعتباره ملخصا لكل الاختلافات والتناقضات ولابد ان تتاح لافراده فرص تكوين اتجاه خلقى سليم وتزويدهم بالشعور الاجتماعى الحقيقى والنظيف لان أى سلوك خلقى انما يتوقف على فهم الفرد لنواحى الحياة الاجتماعية وان أية جماعة بشرية سواء من ارقى الجماعات او أحطها لابد ان تؤثر فى اتجاه افرادها الخلقى وبالتالى فان الجماعة هى محك اختبار السلوك والمثل العليا لدى جميع افرادها وان الاتجاه العام لهذه الجماعة سواء أكان خيرا أم شرا انما يجذب افرادها اليه فيتجهون الى الامانة او الخيانة الى الشفقة والرحمة او القسوة الى الغيرية او الانانية .

ولابد من الاشارة هنا الى ان شبابنا التونسى سليم وان اغلبه ميال الى الكد والعمل بكل اخلاص وتفان ، وانه متفائل بالمستقبل ومقبل على عمله بكل حيوية ونشاط بعيدا عن الميوعة واختيار السهل والتافه من الحياة انه مقدر للرسالة النبيلة والمهمة الخطيرة التى تنتظره مستقبلا فى قيادة هذه الامة الى شاطىء السلامة . واذا كان هناك شاذ فان الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه .

فشعور الشباب بمسؤوليته تجاه امته ووطنه يجعله يثور على نفسه فينزع منها التواكل وعوامل الضعف والاستهتار وان يكون متسلحا بالاخلاق النبيلة التى تجعل منه الانسان الفاضل الذى يحافظ على كرامته ويتذكر دائما انه الانسان الذى رفعه الله على سائر الكائنات وحرره من عبودية المادة والجهل بما

رزقه من عقل سديد يوحى اليه بسلوك قويم ويهديه الى الطريق المستقيم بحيث يعتبر بقول الشاعر :

واذا اصيب القوم فى اخلاقهم فاقم عليهم ماتما وعويلا

كما لا يغيب عن أى شاب متعلم ومثقف واع قول أحمد شوقى :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

مبارك العمرانى
(منزل تميم)

مصادر البحث :

1) كتاب الاخلاق لاحمد أمين ط . (6) القاهرة : مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1957 .

2) أحاديث الى الشباب لسلامة موسى . مطبعة التقدم ـ سلامة موسى للنشر والتوزيع .

3) الاسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب للدكتور عمر محمد الشيبانى دار الثقافة : بيروت ـ لبنان 1973 .

4) التربية وطرق التدريس ـ 3 أجزاء لصالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد . دار الثقافة بمصر ـ 1961 .

5) ثورة الشباب لتوفيق الحكيم .

6) المراهقة : أزمة الشباب مع المجتمع لصلاح الجبالى ـ دار مكتبة الفكر ـ طرابلس ـ ليبيا .

7) خلق ودين للدكتور ابراهيم سلامة ط (1) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابرى الحلبى وأولاده بمصر 1954 .

8) ظاهرة انحراف الاحداث لادريس الكتانى ط (1) مطبعة التومى ـ شارع محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب .

9) نظرية القيم فى الفكر المعاصر للدكتور الربيع ميمون . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1980 .

10) سيكلوجية الضمير لمحمد كامل النحاس . دار الهناء للطباعة والنشر بولاق ـ القاهرة .

الإندلاع من جديد ..

شعر : الحبيب الهمامي

— ① —

أَوْقِفُوا قَلْبِي عَنِ النَّبْضِ
سَأَرْتَاحُ قَلِيلاً
لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ الوَرْدَةَ تَغْزُونِي
وَتَرْمِينِي قَتِيلاً
لَمْ أَعُدْ أَفْهَمُ أَعضائِي
وَمَا قَالَتْ .. وَقِيلاَ ..
لَمْ تَعُدْ أَسْئِلَتِي تَقْنَعُنِي
أَوْ شُرْفَةُ الجِيرانِ تَكْفِينِي
لِكَي أَنْسِج تَارِيخاً جَمِيلاً

* * *

أَوْقِفُوا قلبِي عن النَّبْض
فَمَا عُدْتُ أرى العُمرَ
عَصَافِيرَ تُنَادِينِي
لأغْتَالَ مَوَاعِيدِي مَعَ الأرْض
وَأَجْتَاحَ الفَضَاءَاتِ بَدِيلاً
أَهْدِمُ الأشْيَاءَ أَبْنِيهَا كمَا أَحْلُمُ

أَمْشِي خَلْفَ أَشْيَائِي التِي كَوَّنْتُهَا
أَغْتَالُ أَجْدَادِي وَأَغْتَالُ تُرَاثِي

* * *

أَوْقِفُوا قَلْبِي عن النَّبْض
فَقَدْ قَرَّرْتُ يَا أُغْنِيَتِي
أنْ أَسْتَقِيلاَ

— ② —

وضعتُ يَدِي
فَوْقَ رُكْبَتِهَا فَانْدَلَعَتْ
وشَاهَدْتُ فِي يَقْظَتِي
أَنَّنِي ملكٌ فَجَأَةً صَفَعَتْنِي
فَلَمْ أَنْدَلِعْ وَانْصَرَفْتُ
ضحكتُ كثيراً
وَعُدْتُ إلى قِشْرَتِي : شَاعِرَاً

* * *

أُغَنِّي وَحِيداً
وَوَجْهُكِ يَلْثِمني مِنْ ثُقُوبِ الغِيَابِ
وَحَمَّالَةُ البَرْدِ تَلْثِمُنِي
وَمِنْ شَعْرِ رَأْسِي
إِلى قَدَمِي
إذا لَمْ تُطِلِّي عليَّ
فَأَيْنَ أُقَضِّي دَمِي ؟

الحبيب الهمامي

أزمة الشباب ... أسبابها وحلولها

بقلم : نور الدين بن بلقاسم

ان أزمة الشباب الحاضرة لا تخفى على كل ذى لب فطن . وهى أزمة ان لم توجد لها الحلول الناجعة فانها ستهدد الوجود الوطنى عاجلا أو آجلا .

ذلك أن هذا الجيل يحس احساسا عميقا بشخصيته الذاتية ، وهو لا يتسامح مع التهاون الذى قد يحدث فى السلوك والممارسة على المستوى الاقتصادى والسياسى .

ـ **أسباب الأزمة** : اقتصادية واجتماعية وسياسية .

1) **الاسباب الاقتصادية** : تظهر فى احساس الاجيال المعاصرة بالتفاوت الاقتصادى بين الفئات المحرومة من عمال وحرفيين وفلاحين صغار وبين فئات بيروقراطية وأرستقراطية وسماسرة وطفيليين أثروا على حساب الطبقات الفقيرة الكادحة باحتيالهم وسلوكهم طريقة (الغاية تبرر الوسيلة) ، فبنوا بذلك القصور وجمعوا الارصدة فى المصارف الداخلية والخارجية باستغلال الفرص ، وقبول الرشاوى من الشركات المتعددة الجنسيات وذلك مقابل اعطائها تسهيلات لتصدير صناعاتها الينا أو تصريف بعض شؤونها فى بلادنا . والغريب أن بعض هؤلاء يسلكون هذا السلوك فى الحرص على اللم والتوفير وجمع المال بكل حول وقوة فى الوقت الذى يقوم فيه بعضهم على شؤون الناس ويحتلون مواقع هامة وينادون بالمساواة والعدالة الاجتماعية ويحرضون على

كل هذا يحدث على مرأى ومسمع من هذا الجيل الواعى بقضاياه

اسعاد الناس .

حتى النخاع فتنمو فيه بذرة التمرد على الواقع .. وقد يؤول هذا الشعور ـ أحيانا ـ الى تيار كاسح من النقمة العارمة عند البعض من الشباب ، بحيث تدفع بهم الى النزوع منزع التحطيم والتدمير .

وهذا لا شك خطير جدا ، ولكنه لا يختص به الشباب التونسى وحده ، وانما هو نزعة عامة عند الشباب فى معظم أقطار العالم ناتجة عن وعى حضارى شامل بالوضع البشرى يعتمل فى وجدان الأجيال المعاصرة . ولذلك فان نزعة

النقمة هذه اذا وجدت اليد المساعدة ، والقيادة الرشيدة ، والسياسة العادلة ، والرؤية المستقبلية الواضحة ، والأرضية الممهدة ، والحرية الكافية المساعدة على تفتح كل الزهرات ، فانها سرعان ما تتحول الى نزعة خير ، لأن هذه النقمة فى أعماق الشباب هى تعبير عن عدم شعورهم بالمساواة ، واحساسهم بمناقضة القول السياسى ـ أحيانا ـ للفعل والممارسة .

2) **الاسباب الاجتماعية :** وتتمثل فى نقطتين أساسيتين : ضعف سلطة الاسرة وتردى وسائل التربية .

أ ـ ضعف سلطة الاسرة : أدى ضعف السلطة الاسرية الى تسيب الابناء ، ومسؤولية ذلك تحمل ـ فى مرحلة الطفولة خاصة ـ على عاتق الآباء الذين ينشغل بعضهم بأنفسهم وشهواتهم ، دون النظر الى أبنائهم .

فمن الآباء من يخرج فى الصباح ولا يعود الى بيته الا فى الليل ، لانه بعد العمل ـ ان كان من العاملين ـ يقضى فراغه مع الاصحاب فى المقهى أو فى الحانة أو فى لعب الورق أو فى القمار أو غيرها ..

والام عندما يثقل عليها الحمل ـ ان كانت صالحة ـ تحاول أن تقاوم ولكن فى الغالب ينفلت منها الابناء ـ اذا تعددوا ـ فيتخلقون بأخلاق الشارع .

ومن الامهات من يفعلن ما يفعله الآباء فيلقين الحبل على الغارب ، وينطلقن ليحيين حياتهن ، دون النظر الى مصير الاولاد . والابناء فى مرحلة الطفولة والمراهقة يحتاجون الى عطف ورعاية من أبويهم حتى تستقيم نفوسهم وتخلو من العقد وتشب طبائعهم على الخير وحب الآخرين . فأزمة الأسرة من ناحية أخرى ناتجة عن ضعف الوازع الدينى فيها وهذا أدى الى ضعف الوازع الاخلاقى .

والرأى عندى أن هذا الوازع يمكن أن يترسخ من جديد اذا عمل المسؤولون فى بلادنا على اعادة المدارس القرآنية وتشجيعها من جديد لتعليم الاطفال القرآن فى مرحلة ما قبل الابتدائى ، وذلك حفظا لهم من أخطار الشارع وأوبائه من ناحية ، وترسيخا للأخلاق العربية الاسلامية فى نفوسهم منذ البداية ، ذلك لأن التربية الأصيلة هى التى تتكون فى الست سنوات الاولى من عمر الطفل ، لأن هذه السنوات هى التى تقرر مصيره فى بقية حياته ، وتقرر الكيفية التى ستكون عليها علاقاته الغيرية فى مستقبل أيامه .

وعندما أذكر باعادة المدارس القرآنية من جديد ، فانما أذكر كذلك بضرورة ايجاد دوافع مادية ومعنوية تعين على ابراز هذه المدارس وتعين على ايجاد ضوابط لها وقائمين عليها ، وتشجع من يحفظ القرآن من الكبار والصغار حتى يتلهى

الناس بمثل أعلى رفيع يبعدهم عن صغائر الامور ، يغرس فى نفوسهم التسامح والاخاء ، ويصفى قلوبهم من الحقد والضغينة ، ويطهر سراويلهم ونفوسهم من الادران . ولا يقولن لى قائل : إن المسابقات القرآنية التى تقوم من حين لآخر فى بعض أنحاء البلاد ، أو ما تقوم به ادارة الشعائر الدينية من بعض المبادرات كافية فى هذا المجال . والواقع ان هذا صورة مظهرية لا ترسخ أخلاق القرآن بين الشباب ، وانما الذى يرسخ الاخلاق هو ما ذكرت سابقا ، وبدون هذا الحل فان الذى يتحدث عن الاخلاق فى زمن كهذا اتصفت فيه الاكثرية بالجشع والتمرد والتمسك بالاثرة والابتعاد عن الايثار ، فانما يكون كمن يصيح فى صحراء .

الحل السابق يمكن أن يرجع للأسرة اعتبارها ، ويركز الأخلاق العربية الاسلامية الاصيلة فى مجتمعنا ، فيحترم على أساس ذلك الصغار الكبار ، وتترابط اللحمة أكثر بين أفراد الاسرة الواحدة ، فينمو بذلك احساس الابوين بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم باعتبارهم رعاة لأبنائهم ، وكل راع مسؤول عن رعيته .

وهذه التربية الاسلامية الاصيلة ـ اذا قدر لها ان تعود ـ سوف يكون لها أثر ممتاز على الحياة الاقتصادية ، وذلك يكون بتنقيصها لجشع الناس ، وبذر القناعة فى نفوسهم ، وابعاد التكالب المادى المبالغ فيه ، مما أدى ببعضهم الى اهمال تربية أبنائهم ، والتضحية بهم فى سبيل التحصيل والوفرة .

ولا أنسى وأنا أتحدث عن اعادة المدارس القرآنية وترسيخ التربية الاسلامية الاصيلة ما سيبديه بعضهم من احترازات ، لأن ترسيخ التربية الاصيلة سيقوى من التيار الاسلامى ، وهذا فيه خطر عليهم وعلى مواقعهم . الواقع ان الذين يطعنون فى هذا الاسلوب من التربية أو يحترزون منه هم كالعور يرون الحقيقة من جهة واحدة ، لأنهم يتناسون ذلك التيار الاحمر الذى كان بروزه واضحا يوم ثلاثة جانفى 1984 م ، والذى اذا تنامى أكثر سوف لا يبقى ولا يذر . ولكى نسد الباب دون هذا التيار المهدد للوجود الوطنى علينا أن نشجع التيار الاصيل فلئن نتخاصم مع أناس يأمروننا بالمعروف وينهوننا عن المنكر لهو أحسن بكثير من ان نتقاتل مع أناس يرون فى كل من يلبس كساء جديدا أو يركب سيارة جديدة » برجوازيا قذرا » لا يستحق الا القتل . انى أجيب هؤلاء المحترزين والمتخوفين والمنكمشين خوفا على مواقعهم بما أجاب به المعتمد بن عباد بعض ناصحيه : « لأن أرعى الجمال ليوسف بن تاشفين أحسن بكثير من ان أرعى الخنازير للاسبان » .

ب ـ تردى وسائل التربية : مـن أول أسباب هـذا التـردى التخـلى عن العقوبات الرادعة للمذنبين من التلاميـذ فى مدارسنا ومعاهدنا بالخصـوص ، والاقتصار فى هذه العقوبات على الملاحظات والانذارات مما جعـل التلاميـذ يستهينون بمثل هذه الطرق ، ويستهينون بالاستاذ وبالادارة أحيانا ، وهو ما جعل مهمة التعليم عسيرة وستكون أعسر فى المستقبل اذا استمر أسلوب الردع على هذا النمط الرخو اللين طيب النية .

وأخشى ما نخشاه ألا نجد ـ فى المستقبـل ـ اطـارات تتجـه للتعليـم ، وذلك لما أصبح يحس به المعلم والاستـاذ من شعـور بالمعانـاة المستمـرة ، الشيء الذى نتج عنه مرضان خطيران شائعان بين المربين وهما : **ارتفاع ضغط الدم ومرض السكر عافاكم الله ، وهما نتيجة مباشرة للارهاق الدائم والانفعالات المستمـرة .**

فالرأى عندى أن أسلوب العقوبة الوحيد الرادع هو المتمثل فى الرجوع الى العقوبة البدنية ، وذلك كأن يقرر الاستاذ عقاب التلميـذ (أ) أو (ب) **بعشـر** ضربات على رجليه أو بعشرين حسب مـا يقترفه مـن جـرم **ويكـون ذلـك « بالفلقـة »** [1] على أن لا يقوم بتنفيذ العقوبة الاستاذ بالقسم ، **وانما يقـوم بالتنفيذ قيمون** باشراف مدير **المعهد أو المدرسة** . ولا بد كذلك **أن يكون لهذا العقاب من ضوابط** يحددها المعنيون بالأمر .

الحل الاول . وما أظنه الا نافعا ناجعا !

إن **الأسلوب** الأول فى عقوبة التلاميذ بالمدارس والمعاهد هو **أسلوب أصيل رسخ فى تقاليدنا** التربوية منذ القديم ، وطبق فى الكتاتيب **والمدارس النظامية والجوامع** ، وعلينا اذا أردنا النجاح فى مسيرتنا التربوية أن نرجعه ثانيا بدون أن نشعر بالحرج ، لأنه يمثل جزءا من أصالتنا التربوية من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أنجلترا فى الوقت الحاضر تطبقه فى معاهدها ، وهى ما هى عليـه من الحضارة .. ولعلها أخذته منا .

وقد خصصت المعاهد الانجليزية يوما فى الاسبوع تعاقب فيه المذنبين من التلاميذ عقابا بدنيا « بالفلقة » علنا وفى ساحة عامة أمام زملائهم .

وقد انتقد البعض هذا الاسلوب المتبع عند البريطانيين فى التربية ، فأجابوا بأنه يمثل جزءا من شخصيتهم وأصالتهم ولذلك فهم متمسكون به ولا يحيدون عنـه .

الفلقة : هراوة يشد حبل من طرفيه الى طرفيها وتستعمل لجلد المذنـب على القدمين ، وبعضهم يكنيها بـــ : (خدوجـه) .

ان التخلي عن الاسلوب الرادع فى العقوبة البدنية فى معاهدنا الثانوية بالخصوص أوجد تسيبا خطيرا لا يبشر بخير ، ولا يجعلنا نتفاءل بمستقبل التربية والتعليم في بلادنا . أما العقوبات التى أراها ضرورية في الجامعة هى العقوبات المدنية ، كأن يعاقب الطالب بالسجن اذا أدين بجرم ما . لأن الطالب فى الجامعة أصبح راشدا وهو بذلك مسؤول عما يفعل .

3) **أسباب سياسية :** ان ما يحدث من عنف وتسيب في الجامعة انما هو افراز للتسيب والعنف فى المرحلتين الابتدائية والثانوية بالخصوص .

أضف الى ذلك كثرة التجارب التربوية التيطبقتفي بلادنا من عهد الاستقلال الى اليوم والتى خلقت أجيالا من الشباب متنافرة أحيانا فى السلوك والمنطلق والهدف .

وقد زاد فى سوء الاحوال بالجامعة خاصة ما قامت به بعض الاوساط السياسية فى أوائل السبعينات من تشجيع التيار الاسلامى بالجامعة ليكون العصا الغليظة التى بها يضرب التيار اليسارى المتنامي بين الطلبة والذى كان نتيجة من نتائج التجربة الاشتراكية فى مرحلة الستينات . ولكن هذه الاوساط السياسية نفسها عملت ـ فيما بعد ـ على تشجيع التيار اليسارى وتحديد أنيابه عندما رأت أن التيار الاسلامى قد قوي فى الجامعات ، والذى كان نتيجة من نتائج فشل جميع الاطروحات على الساحة العربية . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت المواجهة كثيرا ما تحدث بين التيارين فى حرم الجامعة ، وذلك بعد أن تندس بعض العناصر المشبوهة بين صفوف التيارين لتشعل الشرارة الاولى بينهما حتى يتوفر المبرر للقبض على بعض العناصر من هؤلاء أو أولئك .

وقد خلقت المواجهات العنيفة بين الطلبة واقعا متشرذما فى الجامعة والمجتمع على السواء ، لما للجامعة من تأثير على الحياة العامة سلبا أو ايجابا ، وقد أدى ذلك كله الى ايجاد فئوية مذهبية لا تسامح ـ فى الفكر ـ بينها ، ولا اطمئنان الى المستقبل المشترك الذى ترجوه .

وبهذه البلبلة ربحت السياسة وخسر العلم ، لأن العلم كالعبادة يتطلب التصوف والانقطاع ويتطلب خلو الذهن من كل المشاكل ماعدا مشكلة البحث ، وهو يتطلب التركيز ، والتركيز لا يكون الا بالمشاعر الهادئة ، وأنى يكون هذا اذا أدخلت السياسة أنفها ؟

ـ **حلول للأزمة الراهنة** : الحلول التى أراها تتمثل فى النقاط التالية :

1 ـ ضرورة أن يعطى المسؤول ـ مهما كان موقعه ـ المثل الأعلى للشباب ، وذلك فى نظافة اليد والالتزام بالقول والفعل .

2 ـ العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بكل حول وقوة ، لأنه بالعدالة تهدأ الخواطر ، وتستقيم الاحوال والاخلاق وينعدم العنف .

3 ـ ايجاد سلطة قوية داخل الاسرة ، تستطيع بها أن تكون المدرسة الاولى للأبناء ، وذلك لا يكون الا بتقوية الوازع الدينى فيها .

4 ـ ابعاد الجامعة عن التسييس حتى يتوفر المناخ الكافى للبحث والاستنباط

5 ـ توفير مواطن الشغل القارة للخريجين من الشعب المهنية ، وللعاطلين من الشباب والمنقطعين عن التعليم فى كافة مراحله ، وذلك يكون مثلا بتمكينهم من قطع أرض من أراضى الدولة ومن جرارات يعملون بها فى هذه الارض ، فتسد بهذا ثغرة البطالة ـ التى هى سبيل للشغب والعنف ـ ويستفيد الوطن من طاقات هؤلاء الشبان وامكانياتهم .

د. نور الدين بن بلقاسم

قـــال لى :

الجهـل حـد فى العلـم ، وللعلـم حـدود بين كل حدين جهل

النفـــرى

السّحاب يختزن الحقول

شعر: حميده الصّولي

دائري وجهُك المسفوحُ في ذاكرتي
وجهك الأخضر .. أصفى من عذاب
أزلي المولد
بِركٌ منه بأعماقي .. واخرى تتسلى
بمسام في يدي
وجهك الغض رَصيف .. ضاع في
أحجاره الزهدُ
ومات الزاهدُ
أصِلُ الصبح بشطآن المساءْ
أمضغ الزيف .. وأجترّ مضاضاتي ..
وأسلو
علّ في الحلم ارتوائي
ظلّ وجهي حاملا بركة ماء
وشظايا الويل أنيابٌ .. تباريحُ ..
بحجم الإنطواء
★ ★ ★

سُفُني ارتابت بحجم البحر ظلت
ترقبُ التيهَ
باحضاني .. وسافرتُ طويلا
سُحبي تختزن الشمس .. وتسقيني
سيولا
سُحبي تختزن – الآن – حقولا
وأنا في وجهك الشاحب أودعتُ
الحقولا
فأنيخي إبلَ الصحراء في ذاكرتي
وابتعدي الآن قليلا
★ ★ ★
سعفة منك برغم الاصفرار الدائري
تعدل الأرض وهادا وسهولا
★ ★ ★
ظامئة سفني
كيف الإبحار وأمواج الوهم

انتبذتني مختبئاً ! ؟
كيف الإبحار .. وأوجار الليل
تكدّس أحجاراً
وعلامات تحدّ في دربي ؟
كيف الإبحارُ وكل مراكب أحبابي
ضيعها التيارَ ..؟
عجبت لشكوى تشعل انفاسي ..
تُوجعني وتنام
ليلي مرتبك الزحفِ ..

يصادر أجنحة الأطيارِ ... ووهجَ
الكلماتِ ..
ويُوقع بالأحباب .. وبالفرحِ
ليلي مغسول القدمينِ ..
وفي فمه عطر .. وقذى

★ ★ ★

سيدتي ..
هل يبقى الوردُ بلا حلم ؟
إني اشتقت إلى أحلام الورد

حميده الصـولى

قصائد الاعداد القادمة

على مشارف الافق	**حمادى الباجى**
الزمان حين لا يجىء	**أحمد سويلم**
من مذكرات البياتى	**رجب بن مهنى**
فصل من قضية طويلة	**شعبان يوسف**

الشباب

بقلم : محمد أنور بوسنينه

« خاطبوا الشباب بلغة الواجب ،
وبلغة الشرف وبلغة المسؤولية » (*)

الشباب عماد الامة وقلبها النابض وساعدها الذى تعتمد عليه فى المحن والملمات ، والمصائب المدلهمات ، وهو فخرها الدائم وعربون الوفاء المتبادل ، ولا حول ولا قوة لامة ان كان شبابها على هامش الحياة ، بعيدا عن معركة الكيان والوجود وهل تكون حياة بدون دم موار بالحرارة والدفق الوثـاب ؟ وهل تكون حياة ان بقيت الايدى مكتوفة مذعنة لا تردد سوى القولة المألوفة المشؤومة « الظروف سيئة » أو « من الملوم » !؟

فليس شبابا من لم يكن قويا ، أو حالما منساقا ، ليس شبابـا من قنـع بالـدون :

شبــاب قنّـــع لا خيـر فيهـم
وبــورك فـى الشبــاب الطـامحينـا

أليس قلب الامة الشباب وجيشها وحاميها ؟ فالشباب هو الامل ومنبـع الرقى والتقدم ، وأرواح الشباب هى التى تقدم فداء للوطـن ودفـاعا عـن حياضه وكيانه ٠

ان من خصائص الشباب القوة والفتوة والقدرة والاندفاع التلقائى وكما قيل : من أحق بحماية الوطن واعزازه غير الشباب ؟ ان الشباب أغرودة الامل الباسم وسر النشاط الدافق فى روح كل نهضة مرجوة وهم وعلى سواعدهم وبأرواحهم بنيت صروح الدول العظيمة والامم الراقية الكبيرة ٠ وان من أوكد الواجبات على ذوى الامر والسياسة توجيه الشباب وجهة صحيحة رائدة بلا عاطفة غالبة أو تقاليد موروثة بالية واهواء مجنحة متقبلة فالبناء الشامخ الثابت لا يقوم الا على الاسس الثابتة المتينة بوعى مسؤول وادراك ثـاقـب

(*) **محمد مزالى** ، الندوة القومية لاعلام الشباب 1983/11/4 .

ونقدير للامور واقعا ومستقبلا وما أروعها مقولة ! أوردها أحمد شوقى منذ ستين سنة بيراعه النثرى الساحر البديع البليغ ناصحا الشباب واصفا محذرا ومرشدا ولنكن معا فى رائقته التالية نتمتع ونتعظ :

« الشباب أيام آذار (١) ، ودولة العذار (٢) ، وأعنة الاوطار (3) وهى مهار (4) ، وليلة العرس فى هذه الدار · سنة كالطيف سراها (5) وكقبلة الخلس (6) حلم كراها ، ونشوة يتلفت المستفيق لا يراها ، وجنة لو خير المقبل (7) بالعقل اشتراها ·

العشق فى غير جناحه ، طائر لا ينهض به جناح ، والكأس من غير راحه ، غبية الساقى بليدة الراح (8) والمال فى غير خزانته غريب ، ويتحول عن قريب ، رؤيا الوارث فى نومه ، وشغله فى يومه ، وملك يده فى غده .

السلطان والدولة ، والامكان والصولة ، والملك وكل ما حوله ، يعم ، اذا لم تحرز فى الشباب فما هى فى الحرز الحريز (9) ، ودول اذا لم تعتز به فليست فى الذر (١٠) العزيز ، ولذات اذا لم يشهدها غادتها حسرة الفوت وراوحتها فكرة الموت · اروع الشهرة ما طار فى سمائه ، وامتع الصيت ما سار تحت لوائه ، واحسن الثناء ما اتى فى اثنائه ، ورف على قشيب ردائه (١١) فى مطالعه بروع النبوغ ، كما تروع الشمس فى البزوغ ، أو الهلال والغلال فى البلوغ ·

---

(١) آذار يقابل «مارس» فى الشهور الافرنجية وهو مستهل الربيع ·
(٢) العذار : جانب اللحية ·
(3) الاوطار : الاغراض ·
(4) المهار : جمع مهر وهو ولد الفرس والمراد أنها فى عنفوانها ·
(5) السنة : الغفلة أو فتور يتقدم النوم والسرى : السيرفى الليل ·
(6) الخلس : من خلس الشىء : اخذه فى مخاتلة ·
(7) الجنة : الجنون والمقبل : المجنون يشفى من جنونه ·
(8) غباوة الساقى وبلادة الراح : كناية عن ضآلة فرحها وضعف نشوتها .
(9) الحرز الحريز : الحصن المنيع ·
(١٠) الذرا : الكنف والملجأ ·
(١١) الرداء القشيب : الجديد النظيف ·

فيا ناهم شبابه ، قاعدا للتجر (12) ببابه ، يسرف في الرحيق وحبابه ، ويتلف الصبا بين صبابتـه وأحبابـه .. أفـق ! تلك دنـان ، لا تقـوى على الادمان ، ولا يملؤها مرتين الزمان ، كرم لا يوجد في الجنان ، ولا ينبت في « مالقه » ولا « شمبان » (13) عناقيده مختضرة (14) الثمار ، مختصرة الاعمار، بريئة الخمر من الخمار (15) حلبها الافـراح (16) ، وجلبها المـراح ، وهى فارضية الراح (17) لم تطأها الاقدام ، ولم تمسسها الراح (18) فـلا تعب (الراقود) (19) ، واشربه نغبة نغبه (20) ، ولا تخترط العنقود (21) ، وكله حبة حبه » .

تلك هى اشارات لامعة عن فترة الشباب العزيزة ووجوب استثمارها في بناء صرح الذات والامة والاقبال على الحياة في جد وعزم وعمل حتى اذا ترك المرء هذا الكون تركه رضى النفس وقد حقت في شانه قولة المتنبي :

وتـركـك فـي الدنيـا دويـا كأنمـا
تـداول سمـع المـرء أنملـه العشـر

وأخيرا فلنكن في مستوى صفات الانسان الارقى الباحث المجد والساعي الباذل من أجل الغير بل من اجل الانسانية قاطبة .

محمد أنور بوسنينه

---

(12) التجر : بائع الخمر .
(13) مالقة : (MALAGA) : مدينة باسبانيا (الاندلس) لها ميناء على ساحل البحر الابيض المتوسط اشتهرت بخمورهـا وعنبهـا . كانت حصنا هاما عهد الحكم الاسلامي «شمبـان» (CHAMPAGNE) : مقاطعة بالشمال الشرقي الفرنسي .
(14) اختضر الكلأ قطع وهو اخضر .
(15) الخمار : صداع الخمر واذاها .
(16) الحلب : اللبن المحلوب .
(17) فارضية نسبة الى ابن الفارض .
(18) الراح : الأكف .
(19) عب الماء : شربه بلا تنفس ، والراقود : دن الخمر .
(20) نغبة نغبة : جرعة جرعة .
(21) اخترط العنقود : وضعه في فيه ثم اخرج عوده عاريا .

ثرثرة رجل فيهم

قصة : محمد بن رجب

نظرت الى التلاميذ في سخط وصحت فيهم : أن اسكتوا ، فخيم صمت نسبي في قاعة المراجعة وعدت الى نفسك ..

تبسمت في سخرية :

ـ لقد انتهى امري .

قلتها وقد شعرت بقتامة الحياة ،،، ومرارة الواقع ، انك تعمل قيما بهـذا المعهد منذ بداية السنة .. وأقسمت أن تواصل دراستك بالجامعة التى دخلتها منذ وقت بعيد ... كنت تنوى أن تنجح وتتخرج بشهائـد عليـا ... ولكن هيهات ،،، لقد فشلت في امتحانات كثيرة رغم مجهوداتك التى أضنتـك .. وأتعبت عينيك وأرهقت أعصابك .

ولكن هل تدرى لماذا فشلت ؟

انك تعرف السبب وتحاول أن تهرب من الحقيقة .

كنت تريد أن تتميز على أقرانك فى الدراسة فتطالع كل الكتب التى لها صلة بالبرامج الرسمية وأساتذتك لا يريدون منك الا أن ترد لهم بضاعتهم...

وكنت تفسر الدروس على هواك وحسب ميولك السياسية .. وأساتذتك يتضايقون من تفسيراتك التى تتجاوز ما عودوك عليه ..

مالك والسياسة ؟. ألم يعلمك أساتذتك بأن تتركها جانبا وتتفرغ كليا الى دروسـك .

كنت تعتقد أن الوعي بكل ما يحيط بك يزيدك قدرة على فهم الحيـاة ... والجامعة ... والاساتذة ... ولكنك أخطات السبيل ...

تذكر زميلك الذى كنت تعتبره حمارا لانه لا يشاركك المناقشات السياسية .. ويرفض أن يفهم شيئا خارج دروسك ..

لقد أنهى دراسته بالجامعة .. والتحق بوظيفة عالية .. وهو الآن يعد رسالة لنيل شهادة الدكتوراه ..

أمرك عجيب .. !

انك ما زلت تعتبره حمارا لا يفهم الحياة ...

هه .! ماذا فعلت بفهمك العميق للحياة .؟

وبماذا أفادتك السياسة ؟!.

عاد التشويش مرة أخرى يقلق راحتك ، فجلت ببصرك فى كل الوجوه .. وخاف بعض التلاميذ إثارة غضبك فتلهوا بكتبهم وكراساتهم محاولين ايهامك بأنهم يراجعون دروسهم فى صمت .

كنت تريد أن تصرخ فيهم .. أن تطرد بعضهم .. ولكنك تراجعت .. وكتمت غيظك .. وعدت الى نفسك .

تلاطمت الافكار فى رأسك .. واصطرعت التأملات فى مخيلتك .. وأسلمت نفسك الى لا شىء .

كانت أمامك ورقة بيضاء.. قربتها اليك وخططت عليها بالاحرف الغليظة :

« أنا قيم » .

قيم و ... طالب ... لا يساويان ... نجاحا !

ما معنى « قيم » ؟

هل ... ربما ... ولكن ...

شددت على الورقة فى عنف ومزقتها .. وألقيت بالقلم بعيدا .. وكأنه المتسبب فى قلقك ...

إنك ضعيف ! ضعيف !

لاحظت تلميذا يرمقك بنظرات حائرة ... أو هكذا خيل اليك ..

ولا تعرف لماذا قفز الى ذهنك أمر هذا التلميذ .. وقلت فى نفسك :

ـ هل يصبح هذا الذى يرمقك فى حيرة صاحب شأن عظيم ؟

ثم هممت بالتحدث اليه الا أنك تراجعت ... أنت دائما تتراجع ...

إنك ضعيف .. ضعيف ..

وقلت فى صوت يكاد يكون مسموعا :

ـ أنا قيم !

قيم ! من قام يقوم قيامة .. قام بحراسة قاعة المراجعة..ويقوم فعل مضارع لا يفيد القيم فى شىء .. والقيامة هى مصدر من قام .. وهى مصدر للقلق .. والقيامة هى البعث من جديد .. صحيح أنها البعث من جديد .. ففى هذا المعهد قيامة عامة داخلية .. وقيامة عامة خارجية .. وأنت قيم .. فان كنت تريد معاقبة تلميذ فابعث به الى القيم العام .. أى الى حضرة القيامة العامة .. فسيعود اليك وقد بعث من جديد .

إن القيم العام لا يرحم .. وفى قيامته العامة الحساب والعقاب ...

وألح عليك أمر آخر :

ـ هل يمكنك أن تصبح قيما عاما ؟.

وتقاذفتك أفكار غريبة ...

تمنيت لو رحلت الى أوربا .. أو الى بلاد النفط .. وانضممت إلى عمالنا بالخارج .. ثم تعود .. ومعك شقراء جميلة .. فتنسى ابنة خالك التى أحببتها .. تعود ومعك سيارة .. ورصيد من الدولارات أو الريالات ..

لماذا ظهرت فى رأسك هذه الافكار ؟

لكنك لا تستطيع أن تجيب .. إنك خسرت العمر كله فى الدراسة .. ولم تتحصل على شىء .. الفشل يلاحقك دوما ...

صديقك .. ذاك الذى هجر التعليم منذ سنوات عديدة .. وانتقدته لانه رفض أن يواصل التحصيل .. هو اليوم غني .. يملك سيارة .. عفوا يملك السيارات .. والفيلا .. ويدير تجارة رابحة .. وفى مكتبه سكرتيرة جميلة.. وتجرى وراءه النساء ..

أين أنت من كل هذا .. !؟ فهل حقق التعليم لك شيئا ؟

الثروة ؟ أنت قيم .. ولن تكون صاحب ثروة ..

الشهادة ؟ لقد خرجت من الجامعة بخفي حنين ! خسرت كل «الخراطيش» ..

وها أنك تحاول العودة الى الجامعة برخصة خاصة قد يرفضها المسؤول.. ولا يمنحها لك لانك مزعج .. أفكارك السياسية تجعل الادارة ترتاب من أمرك ...

فى معنى كلمة « قيم » هناك أشياء أخرى لا تذكرها ...

نقول : هذا كتاب قيم ... هل فهمت ؟! اذن فأنت رجل قيم .. يعنى أن لك « قيمة » ولكن القيم فاقد للقيمة فى حقيقة الامر .. والقيم من أصل « قيم » .. ربما .. فأنت لست متخصصا فى النحو .. ولا فى الصرف ، على كل ربما اهتديت الى ذلك بالبديهة .

« قيم » فعل يفيد التهذيب والتثقيف .. اذن فأنت كقيم تقوم بدور فعال فى المعهد .. تهذب التلاميذ وتثقفهم ..

ولكن ما العمل ؟ وقد قال لك مدير المعهد يوما :

ـ ممنوع على القيم مخالطة التلاميذ .

قالها بالفرنسية وواصل :

ـ دورك الضرب على أيدى العابثين ... اذن أنت شرطى فى المعهد .. تطبق القوانين وكفى ... والمعهد لا يسير حسب رأى المدير الا اذا استتب الامن .. فأنت حافظ قيم للامن... والقيم العام حافظ عام للامن ، والتلاميذ... رعايا ..

ولكنك قيم وكفى !.

وتستفيق من دورانك حول نفسك وتجد أنك فى حاجة أكيدة الى التدخين .. كنت تشعر بآلام مبرحة فى دماغك .. وكنت تحس بضربات متواصلة رتيبة على صدغيك .. ففركت عينيك وحركت رأسك المتعب ..

رأسك المثقل بالهموم والحيرة .. ثم أدخلت يدك الى جيبك لتخرج سجارة .. وتضعها فى فمك .. وتأخذ عود الثقاب من الوقيدة .. ولكنك تتذكر شيئا :

« ممنوع التدخين فى قاعة المراجعة » .

هكذا قال المدير ..

كنت تظن بادىء الامر أن التدخين ممنوع على التلاميذ فقط .. ولكنك دهشت عندما علمت أن التدخين ممنوع على القيمين أيضا ..

عجيب هذا الامر ... ولكنك فى الحقيقة لا تتعجب كثيرا من أقوال المدير وتصرفاته .. فهو لم يسمع بعد أن العبودية زالت من زمان ..

إن السيد المدير « استعمارى » من الصنف الاول ... وهو يرفض الى حد الآن حقوق الانسان ، وقد قال لك مرة : أنا معجب بهتلر ..!

أردت أن تتحدى قرارات السيد المدير المحترم أعزه الله .. لانك مقتنع بأن أمره لاغيا .. وأشعلت عود الثقاب بكل ارتياح ... وقربته الى طرف السجارة ولكن الجرس تدخل ليحسم النزاع بينك وبين قرار المدير .. فأفشل عليك متعة تحديك لقرارات السيد المحترم ...

شعرت بالفشل ... فشل .. فشل !

وتبسمت فى سخرية ... وأخذت أدباشك التى كانت مبعثرة فوق المكتب وخرجت بدون أن تأمر التلاميذ بالخروج ..

أنت رجل لا تحب الاوامر ..

خرجت وأنت تفكر فى هذا الفشل الذى التصق بك الى الأبد ...

محمد بن رجب
(قليبيه)

قال لى :

بدنك بعد الموت فى محل قلبك قبل الموت

الامضاء : النفرى

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجدوب

لا تشبع العين من نشوة اللون ورقصة النور وعربدة الصـور والاشكال حتى تموت .

***

لشد ما تضيق بالموت وتاسى ، لا شيء عندك أقبح منه وأشنع ، ولا أكثر تنغيصا وايلاما ، والموت خدن الحياة يدفع بها الى الكون ويهب لها التجدد والاستمرار !

الموت جسر الحياة . أن تموت لتحيا وتكون .. تلك هي سنة الوجود .

***

عيون محدقة اليك وانت مار في الطريق .. لكانها تجردك من ثيابك نفاذا ، وكأن كيانك يشف لوقعها شفوفا .

***

تبا لمجتمع يعطل القلب ، ويميت العواطف والاحاسيس باسم العلم والمدنية ، وبدعوى الرقي والنجاعة ؛ ولا معرفة في الحقيقة ، ولا انسانية ولا حضارة ما لم تنبع من القلب ، ولم يقرها ويبـاركها القلب !

***

من غريب ما يتفق للمرء ان يكون ديّنـا ورعـا ، صارما في دينه وتقواه ، متسمحا في قيمه ومبادئه ، متهاونا في بعض تصرفاتـه وأفعاله ، ولا يرى حرجا في ذلك ولا بأسا ، وانما الاعمال بالنيات .

***

لا أدب ولا كتابة الا بان تعيش وتحيا بملء قلبك ·· أن تطفح بالمشاعر والانفعالات ·· أن تهز كيانك زلازل العواطف والاحاسيس ؛ وانما الذهن خزان يكبح جماح الشعور ، ويجعل من نزقه وغلوائه تعبيرا وايقاعا ·· رقصا وبيانا ؛ فما نفع الذهن وما جدوى العقل اذا لم يكن ثمة حس ولا حياة ، ولا عربدة ولا جنون !؟

***

الحب ـ وكذا الصداقة ـ الحب يمنحنا أعظم لذة وأكبر سعادة في الوجود ··· أن ترى ذاتك وتجتليها رأسا ، ادراكا مباشرا ، وقد تجلت قريبة غاية القرب والشفافية من حيث ترى ذات الحبيب وتنعم بتمليها ، كلاكما مرآة ناصعة باهرة ، ولا وسيط ولا رقيب ، وكأن لسان حالكما يقول :

روحي وروحك مضمومان في جسد   يا من رأى جسدا قد ضم روحين !

***

كبت العواطف واجهاضها المتكرر مآله الحتمي جمود الحس وحياد النفس وموت الانسان ·

***

ليس الفرد انسانا الا بمجتمعه · اعزله عن جماعته فكأنك قد اخرجته من جلده ، وسلبته عزمه وقواه ، وبترت حوافزه ودواعيه ، وأفرغته من سره وحقيقته ، وقتلت همته ومروءته ؛ فهو بجماعته يحس ويعمل ، وهو بها يشقى ويسعد ، وفيها ولها يفكر ويبدع · هو كـلاشـيء منقطعا عنها ، وهو كل شيء متجذرا فيها ·

***

قوام اللهو الحق وجوهره الجمال ·

الجمال هو الدرجة العليا من الحياة · الجمال هو الحياة في أتم صورها وأرقاها ، وقد بلغت أوج نضرتها وغاية اكتمالها ونضجها·

الجمال ـ الى الحياة ـ ختم وتتويج ·· قمة تستشرف قمما أخرى وذرى لا حصر لها ولا حد ·

البشير المجدوب

الرحلة الصينية

بقلم : علي العريبي

[مشاهدات ضابط تونسي في الهند الصينية]

الرحلة في الادب التونسي الحديث لها منزلتها ومكانتها بين فنون الادب الاخرى كالشعر والقصة وفن المقالة . ويبدو أن الوزير المصلح خير الدين هو الذي فتح الطريق أمام الكتاب التونسيين بكتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » فظهرت كتب عديدة في هذا الفن نذكر منها : صفوة الاعتبار لبيرم الخامس والرحلة الحجازية لمحمد السنوسي والرحلة الاندلسية للورداني.

ولما ظهرت الصحف الوطنية في أواخر القرن الماضي نشرت مجموعة من الرحلات التي قام بها بعض التونسيين الى أوربا أو الى الشرق ويعود ذلك الى رغبة هذه الصحف في اتحاف قرائها : اذ لم يكن لها مخبرون يوافونها بأخبار هذه البلدان، ولم تكن وسائل الاتصال متقدمة كما هي عليه الآن ، فظهرت على صفحات الزهرة لعبد الرحمان الصنادلي (1865 ـ 1935) وجريدة الحاضرة لعلي بوشوشة (1859 ـ 1917) من الرحلات ، من بينها الرحلة الصينية لعلي الشتيوي .

ونريد أن نهتم بهذه الرحلة لانها مجهولة لدى أغلب القراء ، ويعود ذلك الى أنها نشرت في جريدة أسبوعية مر على ظهورها الآن قرابة القرن ، كما أن صاحبها ليس من رجال الأدب والفكر اذ هو من رجالات الجيش .

والحق أننا لا نعرف عن هذا الرجل الشيء الكثير ، وغاية ما يمكن أن نذكره أنه من مواليد القلعة الكبرى بجهة الساحل ، سافر الى الهند الصينية في أوائل هذا القرن ضمن البعثة العسكرية الفرنسية (1) ، وقد سجل ملاحظاته عن هذه الرحلة منذ خروجه من مدينة سوسة حتى وصوله الى

(1) توجت هذه الرحلة بحصول الضابط علي الشتيوي بوسام الشرف مكافأة له على حزمه واخلاصه في الخدمة العسكرية . الحاضرة . 3 جانفي 1905 .

ميناء هاينونغ بفيتنام . أما القسم الثانى فقد خصصه للحديث عن الناحية الاجتماعية بهذا البلد .

وسنتتبع مراحل هذه الرحلة ، ونحاول فى آخر الامر تقييمها وابراز فوائدها من الناحية الاجتماعية والثقافية .

أسباب الرحلة :

كتبت جريدة الحاضرة - التى نشرت هذه الرحلة - (2) تمهيدا بينت فيه أسباب هذه الرحلة فقالت : «لا يخفى ما للدول الافرنجية من السعى المستمر فى تقوية نفوذها السياسى وتوسيع نطاقها التجارى بالممالك المتأخرة فى مضمار الترقيات العصرية سواء فى ذلك الممالك الاسلامية وغيرها ، ومن المعلوم أيضا أن تلك الدول بعد أن وضعت يد السلطة أو الحماية على كثير من الاقطار بآسيا وافريقيا التفتت الى بلاد الصين فرأت قطرا فسيحا وخلقا عظيما قضى تأخرهم الصناعى باستجلاب البضائع الافرنجية ليتسنى بذلك للدول أن تتخذ بها منافذ لرواج تجارتها» .

وحسب الحاضرة فان دولة الصين مع كثرة رعاياها واتساع ممالكها من أضعف الدول لمحافظتها على التراتيب الحربية العتيقة والاسلحة التى أخنى عليها الدهر ، وعدم الاخذ بأسباب الاستعداد على مقتضى الوقت والحال . وازاء هذا الاختلال والضعف أخذت الروسيا تنقص الصين من أطرافها الشمالية ، وجاورتها فرنسا من جهة الطونكان، وانقلترا من جهة الهند ، وأستحوذت الدول الاوربية على الموانى والثغور الصينية ، أرسلت مجموعة من الرهبان على اختلاف مذاهبهم لنشر الديانة المسيحية فاعتنقها بضعة آلاف ، فتذرعت الدول الاوربية بحمايتهم من بنى جلدتهم الذين كونوا جمعيات سرية للتخلص فى آن واحد من استبداد حكومتهم ومن وطأة التداخلات الاجنبية ، وظهرت بوارق تلك الثورة فى الفتك بالصينيين المتنصرين وبالبرهان القسيسين ، ثم تعرضوا لرعايا الدول الاوربية فحاصروا السفراء فى منازلهم ومن بينهم ستيفون بيشون (المقيم العام الفرنسى بتونس بعد ذلك) ثم قتلوا سفير المانيا ، ولما تبين للدول أن هذه الحركة موجهة ضد نفوذها ، عولت على غزو الصين والانتقام من الثائرين

---

(2) نشرت على صفحات الحاضرة ابتداء من العدد 683 . الصادر فى 11 فيفرى 1902 ، حتى العدد 696 . 13 ماى 1902 . فى تسع حلقات .

فجهزت جيشا بعثت به الى الصين قوامه مائة الف جندى دخلوا عنوة مدينة بيكين واستولوا على بقية المدن • ونكلت هذه الجيوش بأهالى الصين تنكيلا تناول المجرم والبرىء •

وكانت فرنسا أثناء تلك الحوادث قد حشدت عساكرها من أقرب النقط المجاورة للصين ثم اضطرت الى تعويض ما نقص من تلك الحامية بطوائف من عساكرها بتونس والجزائر فكان من جملتهم طابور من الآى الترايور الرابع الضارب بالمملكة التونسية ، وأغلب هـؤلاء الجنـد من المسلمين تحت امـرة ضباط من الفرنسيين • أما المسلمون فلا يتجاوزون رتبة الملازم ومن هؤلاء صاحبنا على الشتيوى •

ويبدو أنه كان طلعة يجب الاسفار وركوب الاخطار ، يقول فى مقـدمـة رحلته : «كنت من المشتاقين من التونسيين الى استطلاع غـرائب الاخبـار واستكشاف عجائب الآثار والوقوف على أخبار سكان الشرق عموما وخصوصا المسلمين ساكنى تلك الاقطار حتى سنحت فرصة ارسال نجدة من عساكر الترايور الى بلاد الهند الصينى فحركتنى الاشواق وأملت الانخراط فى سلك المسافرين الى تلك الآفاق» •

بـداية الـرحلة :

«وفى العاشر من نوفمبر (1901) ركبنا متن الفابور الحربى (كشار) بعد أن اختبر قائد العساكر أحوال الضباط الانفار» ، وكان ذلك من ميناء سوسة «فلما تحركت الدارعة باسم الله مجراها ومرساها أطلقت المدافع ايـذانـا بالرحيل وتنويها بهذا السفر الجليل فبقيت الانظار شاخصة الى معـاهـد الديار الى أن غاب الافق عن الابصار» •

ولما توارت السواحل التونسية شعر الجنود بغصة فى القلب وحسرة فى النفس على مفارقة الوطن الحبيب • وكان محمد ابن الخوجة قد أحس قبل ذلك بهذا الشعور عند سفره الى باريس ، فقال على لسان بعـض الادبـاء التونسيين :

يا شاطىء المرسة السـلا م عليك يا نزهـة العيون

وبعد أربعة أيام وصل الشتيوى وصحبه الى بورسعيد •

بورسعيـد :

لفت انتباه الشتيوى آذان الصبح بصوته الرخيم وتلاوة القرآن ، فأخذ ذلك بمجامع قلبه ، فصعد مع رفيق له الصومعة لما اعتراه من الخشوع ، ورأى دين الاسلام قائما والناس مقبلين على الصلاة ، ودخل فصلى صلاة الفجر في الجامع الاكبر ٠

أما سكان بورسعيد فهم أناس أتوا من كل فج عميق يتكلمون جميع اللغات لا سيما الانقليزية والعربية ، وصناعتهم في الغالب التجارة ، وبضائعها من غرائب مصنوعات الترك ومصر تباع بأثمان زهيدة ، وأحياء المدينة نظيفة الا أحياء الاهالي فوسخة ، وغالب السكان المسلمين تكثر فيهم الفاقة الا بعض الذوات من أرباب الخطط الادارية والشرعية ، وأسواقها دافقة بالنساء المصريات اللواتي ينتظرن عملا يأتينه بحسب مقدرتهن ٠

ومرسى بورسعيد فسيح كثير الحركة والنشاط ترسو به البواخر الحربية والتجارية ، وعلى الارصفة جبال من الفحم الحجري ٠ وقد زار الشتيوى باخرة عسكرية عثمانية متوجهة الى اليمن ، فتذاكر مع بعض رجالها ، ورأى من حسن التنظيم وكمال التهذيب في هذه الباخرة الحربية ما سره ٠ ولما عاد الى باخرته التقى بقنصل فرنسا بالمكان ، وهو رجل يحسن اللسان العربي ، ذكر له أنه أقام بالقطر التونسي خمسة عشر سنة ، وذكر له أسماء عائلات تونسية يعرفها الرجلان ٠ وفي ترعة السويس ألقى جندي تونسي بنفسه في البحر ، ولما وصل الى البر ، ودع أصدقاءه بالاشارة ٠ وتعجب الشتيوى من هذه البواخر الراسية في البحيرة المالحة ، وسماها بالدواهي العظمى فخامة وجسامة تتجول في دياجير الظلمات ، وكان لها شواظ من الانوار الكهربائية تنيرها من كل جانب ٠

ولم يستطع الشتيوى النزول الى مدينة السويس لضيق الوقت ، وفي البحر الاحمر الذى استمرت السفينة فيه يومين واجههم بيت الله الحرام فيمموه بقلوبهم وقرأوا ما تيسر من القرآن الكريم ، ولم يحدث في هذين اليومين «الا موت جندي أدرج في أكفانه وهي خيشة من قماش الغراير يحملها أربعة من العساكر يرمونها في قعر البحر مثقلا برزة من حديد وهو منظر تنفطر له الاكباد ويرق له القلب الجماد» ٠

وقبل الوصول الى كولومبو مات نفران من الجنود ، فأما الاول فقد دفن في جزيرة بريم (3) ، وأما الثاني فقد القي في البحر طعاما للحيتان الجائعة ٠

---

(3) جزيرة تابعة لعدن ٠

كـولـومبـو :

وصلت السفينة بعد عشرين يوما من انطلاقها الى كولومبو ، وهو ميناء آسيوي تابع لحكم الانقليز ، تركن اليه البواخر الاوربية . وصادفت الشتيوى وهو فى شوارع كولومبو عربات صغيرة أعدها الاهالى لنقل الركاب يجرها أفراد من فقرائهم مكشوفو الرؤوس قد أرسلوا شعورهم وشدوها بمشط ، لا تستر عورتهم الا خرقة قماش ، وهم أهل قوة وصبر على المكاره.

وكولومبو أشبه بمدينة أوربية الا بعض أحياء يسكنها الاهالى باقية على اعوجاج طرقاتها والاحياء الاوربية تشتمل على منازل منمقة وحدائق غناء ومبان شاهقة . وهى مركز تجارى هام ، وقد لاحظ الشتيوى أن اسعار العيش منخفضة بهذه البلاد ، وان كانت أرفع من أمثالها بالديار التونسية – كما يقول – وغالب سكانها من أغنياء المسلمين الهنود يتجرون فى منسوجات الحرير والجواهر ، ولهم تمسك قوى بالاسلام دين الاهالى ولذلك تكثر فيها الجوامع ؛ ولكن لا توجد بها زوايا – وقد كانت منتشرة بالايالة التونسية – وجميع أهاليها سنيون ، وقد صلى الشتيوى وصحبه صلاة الجمعة بجامعها الاكبر ، وفى هذا الوقت تعطل جميع الاعمال (4) يقول : «فلما دخلنا الجامع التفت الينا الناس بأعين ناطقة بالفرح والسرور ، ولما تمت الصلاة أقبل علينا اولئك الاخوان وحيونا بالسلام فرحبوا بنا واحتفلوا بنا احتفال الكرام وأظهروا سرورهم من ملاقاتنا ، وكان قد اجتمع لصلاة الجمعة نحو ستة آلاف نفس فسألونا هل نحسن القراءة والكتابة بالعربية فسردنا لهم بعض آيات من القرآن العظيم كانت باعثة على زيادة فرحهم فسألناهم عن جبل السرنديب مهبط آدم أبى البشر ؛ فاخبرونا بموقعه وأعلمونا بساعة نزوله من السماء يوم الجمعة بعد غروب الشمس ، وقالوا لنا انه فى كل وقت تنبعث من أرجاء ذلك الجبل رائحة ذكية يضوع نشرها فى الآفاق ، وفى الغالب تنزل الرحمة ويكثر المطر ، ثم صافحونا وسار بنا بعضهم لمشاهدة بعض الدكاكين والناس تزدحم حولنا وهؤلاء القوم من مسلمى الهنود يبالغون فى اكرام الضيف وتعظيمه ويتجاهرون بذلك أقل من عرب افريقيا فدعونا للضيافة وشرب المبردات فشكرنا سعيهم واعتذرنا» .

وزار الشتيوى المعالم الدينية البوذية فى هذه المدينة ، وهى هياكل متقنة

---

(4) عملا بالآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع» سورة الجمعة .

البناء مزخرفة بالوان الزينة . وبها أصنام بوذة (5) وبقية الهتهم . وكان جميع البوذيين ينظرون الى هؤلاء الجنود شزرا ، ولم يفوهوا ببنت شفة ، ولم يذكر الشتيوى سبب احتقار البوذيين لهم . ولعل اتباع بوذا ، وهم يمثلون الرحمة والاخوة بين بنى الانسان يمقتون المحاربين ، والحرب تنشر الدمار وتكون سببا للبغضاء بين البشر .

ولما توغلت السفينة فى عرض المحيط أظلتها غمامة من ظلمات الليل فأزعجتهم قعقعة الزوابع حتى قل سير الباخرة ، واستعد من فيها لتحمل أهوالها وخالوا أنفسهم على وشك الهلاك فكان الخطب جللا ، ولما انقشعت تلك الزوبعة عادت لسيرها فى لجة البحر .

سنغفورة :

هى حسب الشتيوى مدينة عظيمة تكتنفها الغياض والبساتين النضرة . ولم يتمكن هو وصحبه من الوصول اليها الا بعد عناء طويل لوعورة مضايق نرعتها ، ويعود جمالها الى حسن موقعها ، ويأتيها السياح والتجار من كل فج عميق . وقد طاف الشتيوى فى المدينة مع رفقائه على عربات صغيرة يجرها حمالون قالوا انهم من اتباع على بن أبى طالب ، فطلبوا من بعض الحمالين أن يسيروا بهم الى ضريحه (؟) للتيمن ببركاته فتبين أنهم من اتباع شيخ هندى تاجر يحسن العربية فأحسن وفادتهم بمنزله الرحيب ، وهذا الاكرام سنة متبعة وعادة جارية عند كرام مسلمى الهند .

ولما صلى الجمعة تجول الشتيوى فى مناكب المدينة وأسواقها ، فكانت عامرة بدكاكين الصينيين والهنود الذين يرسلون شعورهم فوق اكتافهم ، ويأكلون الطعام بعيدان ، وغالب مؤونتهم من الخضر والسمك ولحم الخنزير وبعد أن تفسح الجماعة فى حديقة الحيوانات الكائنة بهذه المدينة عادوا الى المركب . ودخلوا خليج الطونكان فى 11 ديسمبر من نفس السنة فساروا فيه يومى 11 و 13 منه .

وفى مساء 15 ديسمبر ركب الجنود فى قوارب تجارية سارت بهم فى النهر الاحمر ، وهو نهر رحيب تكتنف جوانبه الاشجار العالية والنباتات الكثيرة . ثم وصلوا الى مكان عساكر الترايور ، ودخلوا المنازل المعدة لهم «وكان فراش العساكر من التبن ونزول الضباط باوتيلات» وذلك بثغر هايفونغ .

---

(5) من حكماء الهند . اسس الديانة البوذية . عاش فى القرن السادس ق. م.

هـايفـونـغ :

تجول الشتيوى فى المدينة ذات الشوارع المنتظمة والطرقـات الفسيحـة والبناءات الانيقة ، فكانت بحق جامعة لمعدات الحضارة من كهرباء ، وكل ما يحتاجه المتحضر فى مدينة عصرية ٠

أما أسواقها فكثيرة وعامرة تغلب عليها العفونة لكثرة ما يجمع من الاسماك التى هى قوام عيش أهلها ، وغالبهم من الافرنج والاهالى والصينيين ، وفيهم بعض من مسلمى الهند ، وغالب تجارتها بيد الصينيين ــ يهود الشرق كما يقول الشتيوى ــ

ويتعاطى الاهالى الحرف الوطنية ، أما دكاكينهم فليست بذات بال وأكثرهم من الخدمة والمستخدمين فى الاعمال الوضيعة والاشغال الشاقة بأجرة تختلف فى اليوم بين 25 و 40 صانتيمـا ومساجينهم مكبلـون فى الاغـلال مثقلـون بشتغلون بالمدينة ويعاملون أقسى المعاملات ٠ وغالب سكان هذه المـدينـة يحسنون التكلم باللغة الفرنسية ٠

وفى 19 ديسمبر خرج الجنود آسفين لمفارقة تلك المناظر البديعة ، والغياض ذات الرياحين الرفيعة ٠ جنات تجرى من تحتهـا الانهـار ٠ ووصلـوا الى هانوى ٠

هـانـوى وفيتـرى :

«هى حاضرة عامرة تحاكى هايفونغ فى التقدم ، تجارتها رابحة وصناعتها ناجحة ، يأهلها الاناميون والصينيون والعيش بها رخيص (؟)» ٠

وقد عثر الشتيوى فى هذه المدينة على رجلين من تونس ، أحدهما يدعى محمد بن سليمان والآخر يسمى ساسى بن ساسى فى عسكر التـرايـور استوطنا هانوى وتزوجا من هذه المدينة ٠

أما فيترى فهى بلدة تقع فى خليج الطونكان ، فتحها سنة 1885 الكومندان بيرنجى ، وانتقل الجنود بعد ذلك للقيام بتمرينات فى ادغال فيتنام وجبالها لمدة عشرة أيام ، واجتازوا بعض المدن والقرى مثل (فوادفوى) و (دونغ لو) ذات المناخ الردىء ٠ وقد رحب الاهالى بهم ترحيبا حارا ، ولاقوا منهم كـل رعاية واكرام ٠ وفى هذه الاثناء مات أحد التونسيين فغسل وصلى عليه ودفـن فى اقليم الطونكان .

وقد خصص الشتيوى الجزء الثانى من هذه الرحلة للحديث عن عادات السكان وتقاليدهم . يقول «ومن غريب العوائد التى شاهدتها فى فيتنام ان المرأة الواحدة قد تتزوج بثلاثة رجال بثمن بخس ، قد لا يتجاوز الاثنى عشر ريالا أى أنها تعقد على ثلاثة رجال ولا تمكن نفسها الا من واحد ، وتنكث العهد مع غيره ، فتتفصى منه بالفرار» وهو سفاح محض حسب الشتيوى . وكثيرا ما تفضى هذه الحالة للخصام والشتم والموبقات ، ويكثر ذلك فيمن يرغب من العسكر .

«وأهالى الطونكان قصار القامة ، ولكنهم متناسبو الاعضاء ، يختالون ويتبرجون فى مشيهم تغلب عليهم الرقة والرخاوة ، يغلب على لونهم الاصفرار ، شعورهم سود طويلة ، يرسلها الرجال والنساء ، وغالب الرجال لاذقن ولا شارب لهم الا المسنون منهم ، يضفرون شعورهم عكفا يشدونها على قفاهم بعمامة سوداء منتظمة» .

أما النساء فيضفرن شعورهن ضفائر يلففنها على رؤوسهن بذيل ملون وان كن حزينات يتخذن لذلك ذيلا أبيض وغطاء الرأس قبعة كالمظلة فى شكل منجل وغطاء رؤوس الرجال فى شكل قمع يوضع على العمامة من قصب الهند ، ولا فرق بين لبس المرأة ولبس الرجل وهو عبارة عن سروال واسع وسترة من قماش ، ومن النساء من يتخذن الفستان والحصارة . وغالب الاهالى حفاة ومنهم من ينتعل بمست (؟) أو قبقاب ، ويغلب على أعينهم السواد .

ويتحدث على الشتيوى عن التجارة باقليم الطونكان التى يقوم بها الصينيون فزاحموا الاوربيين كما يزاحم الاهالى اليهود بالجزائر وتونس ، وهم اقوياء البنية يرسلون شعورهم الى مناكبهم أو يحلقون رؤوسهم الا ذؤابة يضفرونها بخيط من حرير . ومنهم المليار يتجرون فى المنسوجات والاقمشة أو يستخدمون حراسا عند الافرنج وغطاء رؤوسهم أشبه ما يكون بالطربوش المصرى . ودينهم الوثنية .

وبعد أن يتعرض الى أعياد سكان فيتنام وأفراحهم ومعابدهم وأكبر الهتهم «بوذا» وكيف يبالغون فى نقش أصنامهم وزخرفتها ، يذكر الاعمال التى يقوم بها الرجال والنساء على السواء ، وعن الحياة الزوجية يقول الشتيوى : «وفى الغالب ترجع الزوجة للزوج ما أخذته منه من مال ومصاغ ... ومن عاداتهم التزوج بعدة نساء كل على حسب ثروته ، ولكن الحكم للمرأة الاولى»

وقد يتزوج الواحد بعشر نساء يعينوونه على التجارة ، وأم الاولاد هى التى لها السيطرة على الاولاد وبقية الزوجات . وينتقل الارث الى الذكور دون الاناث ، الا اذا سمح الذكر بذلك . ومن العار أن تطلب المرأة هذا الارث مع اخوتها (6) .

أما اذا مات من الاهالى أحد فالعادة فى الجنائز عندهم أن يحمل الميت بتابوت على نعش مكسو بالحرير ، وعلى جسد الميت فنجانان وطبق يمثل الطعام الذى على الميت لبوذا فى الآخرة . وقد يغالون فى نقشه وجعل أطرافه على شكل سمكة ، ويدرجون فى الكفن صحفا متضمنة اسم الميت ووظائفه ، ويحمل النعش أربعة من الحمالين وراءهم اثنان من حاملى الرايات فى موكب حافل بعزف المزامير وقرع الطبول ، ويحملون أيضا صندوقا به جميع القربات لمعبودهم بوذا تضىء عليه الشموع .

ويتحدث الشتيوى عن ولاة الجهات الذين يتولون جمع الجباية ، فكل وال مستقل بعمله مسؤول عنه ، ولذلك يكثر فيهم النهب والارتشاء . والى جانب ذلك توجد مجالس عسكرية وعدلية ، فالعدلية تحكم بالسجن والعقوبات البدنية كالسياط والعصا ، الا اذا أفدى المحكوم نفسه بأداء مبلغ من المال للعامل أو لرئيس المجلس أو قدم هدية للاعضاء بحسب العقوبة وثروة الفرد وحد الزنا عندهم القتل (7) والقاء الزانى فى اليم ، وفى حد القصاص يقطع رأس القاتل ، وحد السرقة الجلد ، وتكثر فى محاكمهم الرشوة ، ويفضل الاهالى المجالس الاتفاقية على حكم الوالى .

أما المدن الكبرى مثل هانوى وهايفونغ وتوران فنظر الاهالى للمحاكم الفرنسية المنتظمة . وتوجد ثلاث جهات من الطونكان خاضعة لزعماء لصوص الماء . وقد عاهدوا حكومة الحماية على الامن بشرط أن يستقلوا بأخذ الجباية على تلك الجهات لانفسهم .

ويقول الشتيوى عن أحكام الطلاق فى بلاد فيتنام : «اذا حدث ما يوجب الطلاق بين الرجل والمرأة ، يبحث حاكم البلاد عن أصل الخلاف ، فاذا كان العيب (؟) من المرأة اسقطت صداقها وأولادها ومكاسبها للرجل ، واذا كان الرجل على الباطل (؟) تأخذ منه المرأة بعض الصداق وبناتها ، وتترك له الذكور .

---

(6) يشبه عادات الارث بالبلاد التونسية .

وكثيرا ما تفر المرأة اذا احست بسخط الزوج عليها • ويحرر رسم الطلاق شيخ البلد فيمضى فيه كل من الزوجين • واذا ثبت أن الاثم على المرأة فانها توثق كتافا ويحلق نصف رأسها وتحزم بمحزمة يرسم عليها لفظ خائنة ، ولا يتزوج بها أحد بعد ذلك فتنخرط فى سلك النساء المتعكرات (8) •

وقبل خطبة البنت يسأل الزوج عن مقدرتها للخدمة والتكسب لينتفع بها، ثم يرسل عجوزا لخطبتها بدون أن يعلم بذلك أهله ، ولا أهلها ، فاذا رضيت أخبر بذلك أهله فيسعون فى الزواج لدى أهلها ، وفى اليوم المعين يقع عقد النكاح على يد شيخ البلدة ، فيمضى فيه أهل العروسين ، ويحتفل بهـذا العقد نقباء المعابد • وهؤلاء النقباء لا يأكلون لحما ولا سمكا ، وانما يقتاتون من الخضر ولا يتزوجون • ويقدم لهم الاهالى القوت ، فيأخذون من مأكلهم حصة لمعبودهم ، ويرجعون الباقى لصاحبه ، ويصومون فى غرة كل شهر وفى الخامس عشر منه ، وفى ذلك اليوم يعكفون على الدعاء والعبادة ، ولهم مواسم دينية ومزارات يسمونها مقدسة عندهم يقضون بها ثلاثة أيـام فى الاكل والشرب والزيارة تقربا الى بوذا كجبل طام مهبط هذا الحكيم عندهم للارض •

هذا أهم ما ورد فى هذه الرحلة • ومن المعلوم أن كثيرا من التونسيين قد أخذوا الى الهند الصينية ، ومات الكثير منهم ، ولم يرجع الى الوطن الا من أطال الله عمره وهذا القليل الذى عاد ، لم يسجل أحد منهم ملاحظاته ومشاهداته عن بلاد الهند الصينية كما فعل صاحبنا الشتيوى •

والمتأمل فى الرحلة الصينية يلاحظ أن صاحبها اهتم بالمظاهر الطبيعية من أنهار وغابات ومناخ • ثم وصف المدن التى زارها من حيث تخطيطها المسارى وانتظام شوارعها . ولا ينسى الحديث عن الاحياء الاوربية من حيث اتساقهـا ونظافتها ، ثم يتعرض الى أحياء الاهالى فيبرز وساختها وضيقها • ويهتـم بأسواق المدينة ونشاطها الاقتصادى •

اما العنصر الثالث الذى اهتم به الشتيوى فيتعلق بالحديث عن المعـالم الدينية والاثرية سواء كانت اسلامية أو غيرها • ويشعر القارىء من خلال هذا الوصف بتدفق مشاعره واحساسه الدينى •

---

(7) على غرار أحكام الشريعة الاسلامية •

(8) يعنى المومسات •

وبعد ذلك يتعرض الى عناصر السكان من حيث أجسامهم ولغتهم ولباسهم ومعيشتهم ونشاطهم الاجتماعى وعوائدهم فى الزواج وغيره ونظام الحكم لديهم ، لم يبين العنصر السكانى الطاغى (وهم من الاوربيين) سياسيا واقتصاديا .

ولا ينسى الشتيوى ـ وهو فى قلب فيتنام بين أزيز الرصاص والاخطار المحدقة به من كل جانب ـ وطنه وأهله ، حتى لكأن هذه الرحلة مقارنة بين ما يعانيه سكان فيتنام من دمار وتخريب ، وبين ما يعانيه وطنه من عدوان وقهر ، فكل من البلدين تحت راية العلم المثلث أو ما يسمى بالحماية الفرنسية .

وقد كانت معركة (ديان بيان فو) سنة 1954 التى انهزم فيها الفرنسيون نهاية لآلام التونسيين وأحزانهم .

والخلاصة أن هذه الرحلة التى كتبها ضابط فى الجند لم تكن جيدة من حيث الصياغة الفنية ، ولا نعتقد أنها فى مستوى الرحلات التى كتبت بعدها بنصف قرن ، ونعنى بذلك الصين الحديثة للطاهر قيقة ورياح الشرق لمحمود المعمورى .

بيد أنها تعبر عن اهتمامات ضابط تونسى وشواغله ، وما لفت انتباهه فى البلدان التى زارها فى أول هذا القرن ، فسجل ملاحظاته ومشاهداته بصورة عفوية وتلقائية ونشرها فى صحيفة اسبوعية لامتاع قرائها بنادر العادات وغريب التقاليد وطرافة السلوك البشرى ، ولعلها تلقى أضواء على الحياة الاجتماعية والسياسية فى فيتنام فى أوائل هذا القرن من وجهة نظر ضابط تونسى مثقف .

على العريبى

أحلام الليالي الدافئة

شعر: أحمد الحباشة

حلم الليلة الأولى

وَيُغَنّي العُصْفُور على الشّجَرِ
وَيُنَادِي بالحب أخَاهْ
وَيَمُرّ سَحَابٌ ... بِالمَطرِ
تسيلُ الأنهارْ
وتَنَامُ الأشجَار
وَيَضُمّ العُصفور أخَاهْ ! ..
وَيَظلّ الإنْسَانُ حَزِينا
يقتلُ بِالحبّ أخَاهْ ! ..
وتجيءُ الشمس بِلاَ أحزَان
وَيكون الليْلُ بِلاَ آهْ
وَيُضيءُ الفجْرُ على وَطني
وَيَعُود الانْسَانْ
مَسْجُونا بِالخَطرِ ...
مَعْتُوها بِالشّهْوَةِ في كلّ أوَانْ
وَيَضُمّ أخَاهُ ... يَمْتَص دماهْ..
يشربُهُ ...
ويظلّ حزينا في كلّ مكانْ !.

بالحبّ يمُوتُ شَهِيدَ أنَاهْ
يمضي في الدّرْبِ على حَذَرِ
وَيُغَنّي العُصْفُورُ على الشّجَرِ
وَيَمُرُّ سَحَابٌ مِنْ فَوْقَ سحابْ
العَالَمُ صفْرٌ .. والصّفرُ سَرَابْ
وَيَظلّ الإنْسَانُ حَزينا
يَشْرَبُ مِنْ دَمِهِ الأحْبَابْ
قِفْ ... لا شيءَ .. سِوَى الأبوابْ
قِفْ ... لاشيءَ .. سوى الإرهابْ

حلم الليلة الثانية

وَجْهٌ أعْرِفُهُ جداً
يَلْقَاني .. في الحُلم أنَادِيه
في شَفَتَيْهِ سجَارْ
بَيْنَ يَدَيْهِ كِتَابٌ وَأصَابعُ طفل
فوْقَ الرّأس رأيتُ غرابا
كانَ صَديقي
مَحزُونا جداً ...
مَفتُوحا فَمُهُ ...

ليس يَصبحْ ! .
كانَتْ رجْلاَهُ مُقيّدَتيْنْ
وَأتتْهُ مِنَ الخلْفِ يدَانْ
تَذْبَحهُ نِصفَيْنْ ! ..
كانتْ ضحكتهُ تمضي كالرّيح
كنتُ أناديهِ ... أُواسيهِ .
علَّ الذّبْحَةَ لا تُؤْذِيهِ ..
لكنّهُ كانَ يقُولْ :
– « صمتا فالذّبْحُ مُريحْ
صَمْتا فالصّوتُ قَبِيحْ ! »
وجهٌ أعْرفهُ جداوأَرَاهُ صبَاحا
يَشْرَبُ قهوَتَهُ الحُبْلى
في زَاويَةِ المَقْهَى
وأظلّ أرَاهْ ! .
والحُلْم بِذَاكرَتِي
يَصْطادُ الرّيحْ !! ...

حلم الليلة الثالثة !.

كان جَميلا
حُلْمٌ فِي ذَاكرَتِي أحيَاهْ
في الغَابَةِ كانَتْ أشْجارْ
في الغابَةِ كانَتْ أطيَارْ
في الغَابَةِ كانَ حِمارْ
الكلّ يَسيرُ، الكلّ ينَامْ
الكلْ يُغنّي
وَيُحِبّ الأسْمَارْ
وَمَضيْتُ معَ الليْلْ
أسْتَنْشِقُ ريحَ الحُلم المَفتُوحْ
كانَتْ مَائِدَةٌ مَنصُوبَةْ
وَوُجُوهٌ ضَاحكةٌ وَطعَامْ
وَيَدٌ تَمتَدّ وَأخْرَى مَثقُوبَةْ
وَالحُوتُ الأصْغَرُ يأكلُهُ الأكبَرْ
كانُوا مُجتَمِعِينَ
وَكان الجَوّ رَبيعا
وَالشمْس تَمُدّ أنُوثتَهَا
وَعلى الشاطِىء كانتْ حوّاءْ
يَسكنُهَا الإغْرَاءْ
وَتُعرّيها النّشْوَةُ حتّى الإعيَاءْ
مَا أجْمَلَ أنْ يَلِجَ الحبّ الإنسان !
كالليل .. وكالفجر .. وكالشمس ..
مَا أحلى العُصْفُورَ يُعَاتِبُنِي !
وَأنَا أهْوَاهْ
مَا أشْهَى الليلَةَ وَالحُلمُ مَتَاهْ !
لكنّي حِينَ أفِيقْ
ألقى العَالمَ مَشْبُوها فِيهْ !!!

منزل تميم فى 3 – 3 – 1984

أحمد الحباشة

خواطر عن طه حسين ومسألة الهوية القومية

بقلم : د. جورج جبور

قبل أكثر من عشر سنوات بقليل ، توفي عميد الادب العربى المرحوم الدكتور طه حسين . واذا كان يصح ان نصف احدا من المفكرين العرب المعاصرين بأنه عميد الفكر العربى ، فلا مشاحة فى ان طه حسين كان أيضا عميد ذلك الفكر ، ذلك انه لا يمكن ان يتبادر الى الذهن اسم مفكر آخر غيره ، كان له على مدى ما يقرب من ثلثى القرن ، أثر مستمر ، كأثره ، فى تغذية الفكر العربى.حتى انه ليمكننا القول : إن طه حسين كان فى حياته ، وما يزال بعد عشر سنوات من وفاته ، أحق من غيره بأن يطلق عليه ما اطلق على المتنبى قبله من أنه « مالىء الدنيا وشاغل الناس » . وما الدراسات والمقالات الكثيرة المدبجة عنه التى تملأ أعمدة الصحف وصفحات المجلات منذ بداية العقد الثالث من هذا القرن وحتى الآن الا دليل واضح كالشمس على أن طه حسين كان عميد الادب العربى ، وعميد الفكر العربى ، ومالىء الدنيا وشاغل الناس ، جميعا . والخواطر التى أخطها اليوم انما هى اشارات أردت بها الى جانب تكريم ذكرى العميد الذى كان دائما فى قلب كل حوار ،، إلقاء أضواء على مسألة الهوية القومية لدى العميد ، اضواء شاء حظى معه ان أخطها ومصر تعانى فى ظل معاهدة استسلام تهدف الى اضاعة هويتها القومية .

* * *

كان طه حسين موسوعيا بكل معنى الكلمة،وكان الى ذلك مبدعا فى الرواية والقصة القصيرة وفى الترجمة الذاتية - أى فى « أجناس » أدبية مختلفة . فأما موسوعيته فليس أدل عليها من دراسته الدائبة لمواضيع تتراوح من

(*) مدير الدراسات فى رئاسة الجمهورية العربية السورية ، وعضو اتحاد الكتاب العرب ، وهذه الخواطر شخصية لا تعبر عن رأى رسمى .

تأريخه للادب اليونانى ، الى عبقريته فى التراثيات الاسلامية ، الى براعته فى المناقشات الادبية ، الى اهتماماته بالشؤون العامة التى قاربها كمثقف ملتزم فاعل فى الحياة السياسية ، له بها تطلعاته المشروعة ، وممارساته التى ستظل تذكر له بالاكبار وفى مقدمتها عمله من أجل محو الامية ومجانبة التعليم .

الا ان أهم أعمال طه حسين قاطبة هى تلك التى أثارت عليه العواصف الظالمة والمحقة · ولا ريب ان اقساها على نفس العميد كانت العاصفة التى عصفت بعالم الفكر والادب لتصل الى عالم التشهير حتى التكفير ، بمناسبة اصداره عام 1926 كتابه « فى الشعر الجاهلى » . نقول : كانت تلك العاصفة الافسى على نفس العميد لانه اضطر ، كما هو معروف ، ليس للدفاع عن آرائه فحسب ، بل للدفاع عن ايمانه حتى ولو كان فى الامر شيء من التراجع عن آرائه . ولعل رسالته فى هذا الامر الى رئيس جامعة القاهرة ، وهو اذ ذاك الاستاذ أحمد لطفى السيد ، تدخل فى نطاق تلك الوثائق التى كثيرا ما اضطر المفكرون على مدى العصور الى كتابة امثالها ، درءا لخطر العامة والتفكير العامي، حين يصل الحال بالضيقين بحرية الفكر الى اثارة مشاعر الدهماء ازاء مفكر حر تقوده حرية فكره الى توجيه التساؤل باتجاه مسلمات عامة ، حتى لو كان توجيه التساؤل انما يصدر عن موقع ايمان قد يكون أعمق من ايمان الرجل العـادى .

* * *

كان كتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » ، الذى صدر عام 1926 ، مثيرا للجدل الحاد الصاخب الذى وصل الى التشهير حتى التكفير . الا ان الكتاب الاهم لعميد الفكر العربى كان كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى صدر عام 1938 والذى قدمه « هدية الى الشباب الجامعيين » ، بعد أن أغراه باملاء الكتاب أمران : « أحدهما ما كان من امضاء المعاهدة بيننا وبين الانجليز فى فى لندرة ، ومن امضاء الاتفاق بيننا وبين أوربا فى منترو ، ومن فوز مصر بجزء عظيم من أملها فى تحقيق استقلالها الخارجي وسيادتها الداخلية » . أما الامر الثانى فكان قضاؤه شهرا فى صيف عام 1937 يمثل مصر فى مؤتمرات ثقافية دولية بباريس . وقد سمع العميد فى هذه المؤتمرات آراء وشهد فيها « أشياء وآثار ما سمعت وما شهدت فى نفسى خواطر وعواطف وآمالا ، لم أر بدا من تسجيلها ، فمنيت نفسى بأن انتهز فرصه هذه الخواطر والعواطف ، لانجز ما وعدت به الشباب الجامعيين فيما بينى وبين نفسى » ، أما هـدف الكتاب الذى أغراه باملائه الامران سابقا الذكر ، فكان أن يجد فيـه الشبـاب

الجامعيون الذين قدم العميد الكتاب هدية لهم « صورة للواجب المصرى فى ذات الثقافة بعد الاستقلال كما يراه مصرى مهما يقل فيه ومهما يظن به فلن يتهم فى حبه لمصر واخلاصه للشباب المصريين » .

* * *

وكتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » كتاب ضخم ، يقع فى نحو من 550 صفحة ، ولعله الاكثر منهجية بين كل كتب طه حسين ، والاكثر التصاقا بالفكر السياسى ، ومعالجة لما نطلق عليه اليوم اسم « الهوية القومية » .

واذا كان من الصعب تلخيص افكار طه حسين فى كتابه الضخم هذا ، فمن الممكن لنا القول ، بعد نصف قرن من صدوره ، ان المسائل التى يثيرها الكتاب ما تزال حية معنا الى هذه اللحظة . أقول هذا معجبا بنفاذ فكر العميد، واتوله أيضا مخالفا له فى كثير مما ذهب اليه .

* * *

عالج العميد مسألة الهوية القومية لمصر فى صدر الجزء الاول من كتابه . فنفى مقولة لا يقول بها أحد على حد علمى ، وهى ان مصر جزء من الشرق معنيا به الشرق الاقصى ، مستخدما اسلحته العلمية فى معركة وهمية ، ليخلص ، على اشلاء المعركة ، الى بناء مقولة لا شك انه كان عليه ، لولا انبهاره بفرنسا ، أن يتنبه الى « عبثيتها » وهى ان مصر جزء من أوربا ، وان الواجب امام مصر ، فى عهدها الاستقلالى الجديد ، هو « المشاركة فى الاوربية » .

وانتهى العميد فى ختام الجزء الثانى من كتابه ، وعلى مدى ما يقرب من 15 صفحة ، الى تبيان « واجب مصر نحو الاقطار العربية » ، على نحو يصح أن نطلق عليه بلغة اليوم ، تعبير واجب مصر فى تمصير العرب ، واجبا ينضح « بالابوية » ، وبالنفعية أيضا .

واذا كان لكلام فى أسطر معدودات ان يلخص كلاما فى مئات الصفحات ، فمما سبق تلخيص أمين لمسألة الهوية القومية كما عالجها طه حسين فى خير كتبه .

* * *

ليس من العدل ان نقف فى مطلع عام 1984 ، لننتقد ، على ضوء معطيات اليوم ، ما خطه عميد الفكر العربى ذات صيف قبل نحو من نصف قرن اثر شهر أمضاه فى باريس ـ الفكر . ولكن من العدل ان نعجب ، لو عاصرنا

العميد ، كما من العدل ان نعجب اليوم ، لهذا الانبهار الكبيــر بأوربـا ، وان نسخط لهذا التناسى المريب لاهم ظاهرة دارت حولها احداث المنطقة، بما فيها مصر ، ألا وهى ظاهرة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى. ولا ريب انه كان على العميد ان يرى ، وهو فى باريس ، ما رآه قبله ، ومن باريس ايضا ، مفكر آخر عاش قبله هو نجيب عازورى ، الذى كتب عـام 1905 ان الصـدام بين العرب واليهود سيكون أهم أحداث المنطقة ، وعلى نتيجة هـذا الصـدام قد يتوقف مصير العالم ، لا سيما وأن أيام العميد كانت أيام الثورة الفلسطينية الكبــرى .

كذلك علينا أن نسخط أشد السخط لما فى هذا الانبهار الكبيــر بأوربـا ، الذى يظهره طه حسين ويتابعه فيه عدد من تلاميذه الذين سيطروا على الحياة الثقافية فى مصر (والبلاد العربية) ، من استخفاف بثوابت منطقتنا ، حتى لكأن « التغريب » الذى دعوا اليه يكاد يطـالب بافـراغ سكـان المنطقـة من « عواطفهم » الذاتية كى يصبحوا أوربيين . وهم فى ذلك لا يختلفون كثيرا ، بل كأنهم يمهدون السبيل أمام المطالبين بافراغ المنطقة من سكانها لالحاقها ، عبر سكان جدد ، بقطار الحضارة الاوربية .

* * *

ومن عجب أن أفكار طه حسين فى مسألة هوية مصر القومية ، مـا تزال تتردد حتى أيامنا هذه . بل لعلنا لا نظلم العميد اذا قلنا : إن « الاستشراقية المزدوجة » التى ننظر بها الى ما ومن حوله ، مسؤولة ، الى حد لا بـأس به ، عن تمهيد السبيل امام ما جاءت به اتفاقيتا كامب ديفيد من انكـار لعـروبة مصر ، انكار كرسته المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية فى 1979/3/26 .

* * *

... ولن أقف عند هذه النقطة الا لاتجاوزها . وبالتحديـد لم يكـن همى الاشارة الى السياسة الراهنة من خلال بذورها الفكرية ، الا لأؤكد على الواجب الفكـرى ــ القومى الجليــل ، المتمثـل فى التصدى ، بموسوعية اشمـل من موسوعية طه حسين ، الى تراثنا النهضوى ، وموضعته فى الموضع اللائق به، كلحظة فى تاريخنا الفكرى ، لحظة امتازت بضعفنا أمام الغرب ، لحظة علينا ان نتخطاها ، بشجاعة ، فى عالم الفكر على نحو مماثل لما نشهده من تخط شجاع لها فى عالم الواقع الملموس .

1984/2/8

جورج جبور

هو الموسم البكر

شعر: محمد الأمين الشريف

وأنتِ معي
تتراءى إلي طوالعُ وعدي
احس بأنك أقرب مني لشعري
وأنك يامنيةَ الروح لي من أزال ...
فأي القواقع هذي التي حجبتك
وأي الخمائل هذي التي اثرتْ
في الظلال بقاك ؟
وأي المواعيد هذي التي بخلت بلقاك ؟
أنا العمر
عايشته في انفصام
أروح وأغدو بدنيا اكتئابي
فلا قلبَ يسلو
ولا حضن يحنو
ولا روح تسمو
ولا قطر بلل قيظ ابتلائي
أيا ألفة الدرب بوحي
أيمكن خلف اختفائكِ
هذا الذي كان داء اغترابي ؟!
وضوع احتراقي
وجام التياعي
وسرّ ولوجي
بهذا الضياع ...
هو الموسم البكر
يا روح روحي
هو الطلق
والبدءُ
والوصل
والمنتهى

الجـــذور

قصة : محمد الجابلي

جدي : هذا الشيخ المسجى أمامي جثة هـامدة .. لكنـه حي في كيـاني وسيظل كذلك . لم أكن أتصور أن جـدي يدركه الموت كالآخرين لم أستطع أن أتمثل بيتنا بدون ذلك الشيخ الذى تراه حاضرا في كل شيء ، ماثلا في أذهان الكبار والصغار ، كل يراه بمنظاره الخاص كأنه لغز أو أسطورة ممتدة الجذور ، لم أستطع أن أتخلص من تأثيره رغم تقدم سني وإدراكي ، كان ماثلا في أعماقي كالاسطورة المقدسة أحاول مجابهتها بوعيي فتزداد تغلغلا في لا وعيي .

أحببته مذ كنت صغيرا وبما أني كنت الوحيد في العائلة أعرف القـراءة والكتابة كان يوليني اهتماما خـاصا ويحدثني كما يحـدث صـديقه الحميم (الحـاج مـوسى) .

كان يسألني عن درس التاريخ خاصة وكثيرا ما يرمي بالكتاب في وجهي اذا عارضته في رأي أو اذا صححت له تاريخا محتجا بالكتاب فيقذفه في وجهي أحتج بأقوال المعلم فيصفر مستهزئا ، ذلك الصفير الذى ألفته وكثيـرا مـا أعبر به أنا أيضا عن استهانتي بشيء من الاشياء ، كان شديد الفخر بنفسه يعتقد أن الخطأ لم يوجـد لأمثـاله ، وبمـرور الايـام زرع في ذلك الاعتقـاد فأصبحت أصدق أقواله وأغلق عليها دماغي الصغير ، ذلك أني في يوم مـا أجبت اجابة صحيحة عن سؤال تاريخي فبهت المعلم واستفسر عن الكتـاب الذى أخذت منه تلك المعلومات ولما أعلمته أن جدي هو الذى حدثني عن تلك الاحداث التاريخية أطنب في مدح حكمة الشيخ ومعرفته ، مدحه أمام زمـلائي فاشتد فخري به وأصبحت أصدق حتى خيالاته وأوهامه .

لن أنسى كذلك أن هذا الجد الذى طالما افتخرت به فى المدرسة قد جعل مني مسخرة أقرانى وأساتذتى خاصة فى سنتي الاولى من التعليم الثانوى ، كنت أعارض المسلمات التاريخية وأخلط أحيانا بين الخرافة والعلم وبين الحقيقة والوهم :

حدثنا أستاذ التاريخ مدة عن الحضارة الرومانية وآثارها فى بلادنا مستشهدا بقصر « الجم » فاندفعت أنا أعارض بحدة وقلت له : « ان قصر « الجم » بنته « الكاهنة » تلك المرأة العملاقة التى كانت تبني الطابق العلوي من القصر وعندما يبكي ابنها الرضيع الملقى على الارض ترمي له بثديها ليرضع منه ... » .

أغرق الاستاذ فى الضحك وضج رفاقى كذلك يرمونني بالجنون والسذاجة، فغصت فى مقعدي متفاديا سهام السخرية .

رغم هذه الحوادث الأليمة لم افكر يوما من الايام فى التخلي عن منطق جدي بل لن أستطيع حتى ولو فكرت وحاولت لان ذلك المنطق يسحرنى بخلطه بين الحقيقة والوهم خلطا محكما بعد أن يصغي اليه السامع لن يستطيع التفريق بين ما هو حقيقة وواقع وبين ما هو وهم وخيال .

عندما يحدثك جدي يصب فيك قناعاته صبا محكما لان سهام عينيه تنفذ قبل كلماته وتمهد لها السبيل الى جميع الحواس .

لا يجرؤ أحد على معارضته إلا جدتي أحيانا ، كانت تثيره وتحسن اختيار فرصة التدخل ولو بكلمة واحدة تقطع بها حبل كلامه فيغتاظ ويهددها بعصاه ــ تلك العصا التى التصقت بصورته فى ذهنى فلن استطيع تصور جدي بدون عصا ولا عصا بدون جدي كان يهدد بها فى خصوماته الكثيرة وينبش بها الارض عندما يطرق مفكرا ويدق بها الباب عندما يجده مغلقا ــ قلت : إن جدتي هى الوحيدة التى تستطيع مقاطعته لكن بحذر وذكاء فيثور جدي ونثور نحن كذلك لاننا غالبا ما نكون مشدودين الى شفتي جدي والى قسمات وجهه الأجعد وكأننا أمام شاشة سنما أو تلفاز : فى لحظات نرى الغضب يرتسم على وجهه ونرى حافتي شنبه ترف كهر متحفز ، ثم نرى الفرح والبشر والابتسامة السحرية فتضيق عيناه ، وينفرش شنبه فتخاله جناحى نسر هرم

يصفق جدي بيديه أسفا أو طربا ويرفع عصاه اذا كان المشهد القصصي فيه بطولة أو تهديد .

يغرقنا جدي فى عالمه المتغير فننام نهضم ما سمعناه ونصبح نتخيل ونتذكر تلك المشاهد التى مثلها أمامنا .

جـدي لا يتحرج مني ــ بل لا يخجل ولا يتحرج من أحد ــ يروي أمـامى قصصا إباحية ومغامرات مع نساء كثيرات ، يحاول (الحاج موسى) صرفى عن مجلسهم فيقول له جدي زاجرا :

« اتركه يا حاج ، أتريده أن يصبح مثل ابنك « لزهر » لا يفرق بين القرعة والبطيخة ؟ أريده أن يصبح مثلي هو الذى سيخلفنى من دون بقية ذريتى ...»

ويقاطعه (الحاج موسى) محتجا :

« والله يا شيخ انك دخلت « عمر الكبر » ، هذا كلام تقوله أمام حفيدك ؟ أتريد أنتعلمه المفاسد منذ صغره ؟ أم تريد أن .. »

ويسكته جدي بلسانه السليط :

« ما خرفت إلا أنت يا حاج تحسدنى على حيـوية قلبى ، مـاذا رأيت فى حياتك ، عشتها كالحمار تأكل وتروث ، تجمع أوساخ الدار الدنيـا ، ستموت وسيقولون (مات كلب) ... »

بعد هذا الشجار المعتاد يصمت (الحاج موسى) ويواصل جدي حديثه : يبدؤه بالمرأة وينهيه بالحرب ــ المرأة والحرب هما موضوعا جدي الاساسيان ــ يقسم النساء الى ثلاثة أجناس لا غير : (الشقراء ــ السمراء ــ السوداء) .

ومن خلال أحاديثه المتكررة عرفت أن الشقراء هى الاوربيـة والسمراء هى العربية والسوداء هى السودانية :

« السمراء (يا حاج موسى) حصنها من طوب اقتـرب منهـا تنهـار كل حصونها وقلاعها أمامك ... أما الشقراء شيء آخر تخالها فى البـداية بغير قلاع ولا حصون لكنها صعبة ... مثل « موتور المزوط » لا يعمـل الا بعـد التسخين لكن متعة كبيرة يا حاج ... أما السوداء مثل « موتور اليسانس » « يلهب لهبان » وقليل هو الفارس الذى لا يسقط من فوقها ... إيه يا حاج المرأة كالارض نخرج منها ونرتمى عليها ونغوص فيها ونندمج بترابهـا فى القبـر » .

يحاول الحاج موسى استفزاز جدي فيقول له : « أين وسام الشجاعة الذى تحصلت عليه فى الحرب العالمية ؟ »

ويهز جدي رأسه ويمد بصره مع الأفق البعيد ثم يقول : « ماذا أفعل بالأوسمه ؟ والله العظيم « ليلة » أحسن من ألف وسام يا « ملهوف » » .

نال جدي وسام الشجاعة من الجيش الفرنسى لانه أسر بمفرده مجموعة من الايطاليين باغتهم أثناء نومهم فساقهم أمامه ، أما ذلك الوسام أعطاه جدي « للشقراء » يسميها « الشقراء » معرفة تمييزا لها عن بنات جنسها لأنه لا يعرف اسمها ، يذكر فقط أنه قضى معها ليلة حمراء ، طلبت منه النقود فرمى لها ذلك الوسام الذهبى .

جند جدي ضمن مشاة الجيش الفرنسى قبل الحرب العالمية الثانية وطالما افتخر بحسن تصوبيه الرصاصة الى صدر العدو لم يتعلم ذلك فى الجيش الفرنسى بل هى موهبة طبيعية كما يقول هو :

« دخلت لارمى » وبدأنا التدريب .. كان معى (صالح العجمى) يرحمه الله (يضحك طويلا ثم يواصل) لم يستطع أن يصيب الهدف ولو بحبة واحدة فوبخه (اليطنة) وفى اليوم الثانى أراد أن يدقق التصويب فقتل حمارا كان يرعى بعيدا جدا عن اتجاه الهدف ، أما أنا من أول ضربة والله يا حاج أصبت وسط (النيشان) ، وعندما رجعنا من التدريب استدعانى (الكماندة) وسألنى أسئلة كثيرة : (أين تعلمت الرماية ؟ هل تدربت سابقا ؟ هل ذهبت الى الحجاز ؟ هل انخرطت فى الجيش العثمانى ....؟) كنت أجيبه بالنفي دائما لكنه هز رأسه ولم يصدق وأبقانى معه فى فرقة الحراسة ... كنت عندما يجري الدم فى عروقى بشدة خاصة فى فترة الشباب أركض بدون هدف كالمجنون ــ المرأة نصف الدنيا (يا حاج موسى) كنت فى الجيش الفرنساوى ــ يمر علي شهر وآخر دون أن أرى شبح الأنثى فترانى كلما التهبت الذكورة فى جسمى أركض وأركض مسافات طويلة حتى أسقط على الارض وأحيانا ترانى أدور بالثكنة وأدق الارض وأنهق كالحمار الهائج وأخور كالثور الذى لم يرى النور طول حياته . وعندما يسيل العرق من كامل بدنى أسقط على الارض يصمت ذلك الصوت الرجولى الملح ــ سبحان الله يا حاج ــ التعب عندما يحل فى الجسم يفقده كل رغباته ، تسيطر عليه فقط تلك الرغبة الملحة فى الراحة والاستلقاء السريع » .

يتنهد (الحاج موسى) ثم يبتسم مشجعا جدي على مواصلة حديثه . يخرج جدي حقة نشوقه يضعها في يده اليمنى ، يتحرك إبهامه يلتصق آليا بالنصف الاعلى للحقة بينما تضغط سبابته على النصف الاسفل وتنفتح الحقة دون أن ينظر اليها ـ يحرر عصاه من قبضة يده اليسرى ويسندها على ركبته ـ يحرك يده ببطء وبدقة فتستقر أصابعه وسط الحقة ثم تتحرك بهدوء وباتزان تجاه منخريه اللذين يتسعان حالما تفتح الحقة فيستنشق أولا بهدوء وكانه يشتم وردة شذية ، ثم وبشخرة واحدة ينهى ما بين أصابعه . إذذاك تكون يده اليمنى قد أغلقت الحقة واعادتها الى جيب جبته الكبير وتكون قد أسرعت بالمنديل تزيل ما علق على شنبه من نشوق . تعود اليد اليسرى للعصا بينما يبتسم جدي ابتسامة عريضة تباعد بين جزئى شنبه الطويل فيظهران كجناحى نسر صغير يحاول الطيران .

الفرنساوى ڤواد يا (حاج موسى) والله عاشرتهم جميعا من الجندى الى الجنرال فما وجدت فيهم رجلا ، كنت عندما يشتد بى الشباب أجري وأركض فناداني (الكامندة) بعدما عرف أمري ومازحنى بقوله : « لو سافرت معي لقدمتك أحسن هدية لزوجتي ... » انصرفت ولم أؤدي له التحية العسكرية فأمر بحبسى مدة طويلة .

أصغى الحاج موسى لحديث جدي وابتسم وانفجر مدة ضاحكا ومصفقا بيديه ، نظر له جدي متسائلا فقال الحاج موسى :

« والله يا حاج تذكرت حكاية هروبك من العسكر الفرنساوى وكيف أنك مثلت معهم دور المجنون والله إنك إبليس فى الزور والبهتان » .

ـ آه لو لم أمثل دور المجنون لأعدمني أولئك المجانين الخنازير ، لم يفهمونى عندما قصصت عليهم القصة بصدق وحكموا علي بالاعدام لان التهمة خطيرة يسمونها الخيانة والتعاون مع العدو ـ حتى أنت لم تفهمنى يا حاج ـ تلك المدة الاولى تصرفت فيها بشهامة .

ـ والله انك مجنون بحق لو كنت مكانك لما أطلقت سراح خمسين جنديا (طلاين) لا دين ولا ملة وزيادة على ذلك هم أعداؤك فى الحرب ...

ـ والله ما كنت لأطلق سراحهم لولا ذلك الناي العجيب سحرنى أحدهم (ابن الكلب) سحرنى بنايه ، ظل يعزف ويعزف الى أن تحرك كل شيء : البناء والنبات والانسان ، الكل تمايل على أنغام ذلك الناي ، نسيت نفسى

ونسيت اني جندي أحرس أسرى الاعداء ، نسيت كل ذلك واندفعت وسطهم أرفض لاول مرة في حياتي . والله يا حاج أظن أن الدنيا هي التى رقصت وتمايلت بي ، هم كذلك لا تظن أنهم فكروا في الهروب وماذا يعني الهروب أو الأسر أو الموت في تلك اللحظات ؟ نسينا أنفسنا وبقينا لا أدرى كم من ساعة على تلك الحالة وكاننا دراويش في حضرة (سيدى عبد القادر) ، ولما أخذ منا التعب مأخذه تهالكنا على الاسمنت أنا بقيت مدة لا أعي ما حولى ، ثم قفزت فجأة أفتش عن مفتاح المعتقل في جيوبى ، لم أجده فصعقت .

امتدت نحوى يد صاحب النادى ذلك الايطالى الاشقر — مد لى المفتاح وابتسم — انتشلت المفتاح من يده بسرعة وبقيت أتأمل ملامح وجهه : لم تعد تستفزنى نظرته الزجاجية الزرقاء ولا لون بدلته العسكرية احسست انه قريب مني رغم كل شيء حاولت أن أسأله أسئلة كثيرة : (هل له أخوة مثلي ؟ هل له حبيبة ؟ هل له زوجة وأطفال ؟ هل يسكن القرية مثلي ؟ كيف تعلم عزف هذه الالحان الجميلة الخلابة ؟ أكان مثلي يرعى الغنم وينفخ تلك الالحان السماوية من نايه البسيط ؟...؟ » تحركت شفتاى ، تحركت كذلك شفتاه ولكننا لم نتفاهم لا يفهم لغتي ولا أفهم لغته ! فبدت الحسرة على وجهينا والله يا حاج لو سألتنى في تلك اللحظات عن أعز أمنيتى لطلبت فورا التخاطب والتفاهم مع ذلك الايطالى ، أحببته بل اندمجت معه ، لم أكن أعره أى انتباه قبل عزفه ذلك اللحن الخلاب ...

يقاطعه الحاج موسى : « كيف تحب ايطاليا كافرا (الطلاين) خاصة سيكونون وقودا لجهنم يوم القيامة وحتى رائحتهم ...

يقاطعه جدي بحدة : قلت لك : لا يمكنك أن تفهمني يا حاج موسى ذلك الشيء الذى احسست به أكبر من كل شيء أكبر حتى من الدين .

(يتمتم الحاج موسى مستغفرا وتعلو وجهه علامة استغراب واستنكار) ويواصل جدي :

« نعم أكبر من الحرب من النزاعات .. في الليلة القادمة اسرعت متلهفا لحراسة « المعتقل » حاولت مجددا أن أخاطب ذلك الايطالى ، أعطيته علبة سجائرى فشكرنى بقسمات وجهه ، فتش جيوبه وأهدانى سلسلة ذهبية صغيرة . بقينا صامتين مدة طوية انظر في وجهه وينظر في وجهى وكاننا نقرأ كتابين مقدسين ، حاولنا أن نتفاهم بالاشارات الا انها كانت قاصرة ،

فاسرع الى نايه السحرى وبدأ يعزف ويعزف وانشددت اليه أطالع قسمات وجهه وأتابع حركة أصابعه بدت إجاباته واضحة فى قلبى . والله يا حاج لو أن أفصح المتكلمين بلغتنا ما استطاع مخاطبتي بذلك الوضوح الذى نفثه ذلك الايطالى فى قلبى بنفحات نايه قال لى كل ما تساءلت عنه ، أحسست أننا لسنا أعداء وان الذى كان بيننا وهم ، كل ما فصل بيننا وهم : (الدين ، الحرب ، هتلر المجنون ، موسيلينى الأعرج ، الفرنسى القواد ...) أحسست انى أرعى الاغنام معه فى الغابات الشاسعة وانه يحكى لى عن احبابه وآماله ومغامراته ، أحسست أننا طفلان بل أخوان نركض ونقطف الازهار ونطارد الفراشات . يعزف ويرقص فيشرق البشر من قسمات وجهه . أحسست برعشة فى جسمى ، أحسست انه يطلب جوابا ، فتحرك كل عضو فى جسمى وتمايل على تلك الالحان ، اشتد العزف وبقيت أنط وأقفز بل أطير ، لمحت دمعة ترقرقت على خده ، فجلست وبكيت طويلا كطفل يتيم ، أقبل علي فتعانقنا بشدة ...

وعند الفجر أيقظت كامل الاسرى واحدا واحدا، وبهدوء تام أبعدتهم عن مقر الفرنسيين ، عند الوداع التفت الى ذلك الايطالى ، لم يكلمنى ، لم يصافحنى ! نظر فى وجهى طويلا على ضوء القمر الممزوج بضوء الفجر ثم وضع فى يدي الناي واشرق وجهه بابتسامة طفولية والتحق برفاقه .

رجعت فرحا منتشيا أقلب الناي فى يدي وكأنه كنز ثمين . لما وصلت الثكنة وجدت الجميع فى حالة استنفار واضطراب لانهم سرعان ما افتقدوا الاسرى . أول جندي رآنى خاطبنى بعنف واقتادنى (للكماندة) ، وجدته يصيح ويصرخ كالمجنون ويلعن الجميع ، لمحنى فوجه فوهة مسدسه الى رأسى : « تكلم يا وحش أين الاسرى ...؟ » لم أشعر بارتباك أو خوف حدثته طويلا عن الايطالى الذى سحرنى بنايه ، ضربنى ضربة بمؤخرة مسدسه على رأسى أفقدتنى الوعى ولا أدرى استفقت بعدها على صوت ذلك (الكماندة) يسألنى ثانية عن الأسرى فادعيت أنهم هربوا وانى حاولت اللحاق بهم .

أمر (الكماندة) باعدامى حالما أعود الى حالتى الطبيعية لان التقليد العسكرى لا يسمح باعدام جريح أو مريض ، عندها لعبت لعبة الجنون ، فظنوا أنى جننت بسبب تلك الضربة صبيحة الواقعة واطلقوا سراحى نهائيا ... » .

أعود من المدرسة فيحتظننى جدي أدخل معه فى جبته ، استنشق رائحة جسمه التى تشبه رائحة تربتنا الندية يسألنى مبتسما :

« صبحت تعرف الفرنسية الآن ما معنى (الزوليف ؟) »

أفكر طويلا وأنبش ذاكرتى الصغيرة علني أجد معنى لهذه الكلمه يحاول ان يساعدنى فيضيف : « هو نوع من الشجر ، بقربنا الآن الكثير منه » يقول ذلك ويشير برأسه الى الزياتين المصطفة أمامنا .

أتذكر اسماء الاشجار لكنى لا أجد هذا (الزوليف) ، عندها يقهقه ويلعن تعليم المدارس القاصر ويقول لى :

(الزوليف) هو الزيتون يا جحش !

أضحك أنا أيضا وأحاول أن أصحح طريقة نطقه للكلمة الفرنسية (les olives) ولكنه يصر على سلامة نطقه الذى تعلمه من الفرنسيين أنفسهم وليس من المعلمين العرب ، كان دائما يمتحننى ويقذفنى بألفاظ معوجة النطق ويتركنى أبحث طويلا ثم يعربها لى ويتهمنى بالجهل التام لأصول اللغة الفرنسية . مصطلحات كثيرة يطلقها بسرعة ويتلفظها بطلاقة تخالها سليمة لكنك لن تجدها فى أى قاموس لغوي :

« آه الآن أصبحت فى الثانوي ، يمكننى أن أتحدث معك بالفرنسية ما هو (لجفال) ؟ » .

وبعد أن أعجز كعادتى ينفجر ضاحكا ويقول :

« ما زلت لم تتعلم شيئا ، لو كنت ذكيا لفهمت المعنى حتى بالعربية (لجفال) هو الحصان ، سموه كذلك بالفرنسية لانه (يجفل ـ جفال) » .

فأحتج وأحاول أن أشرح له بأن الكلمة الفرنسية فى الاصل تنطق : (le cheval) وانه نطقها نطقا غير سليم ، وأن هذه الكلمة لا صلة لها بالمصطلح العربى الذى ذكره فيتحدانى معددا لى سنوات خدمته العسكرية مع الفرنسيين التى تفوق سنوات دراستى بل كل عمري .

مات هازئا بالموت مستنفذا كل دقائق الحياة .

« لماذا خلقنا الله (يا حاج موسى) ؟ » يسأل ثم يجيب دون انتظار :

« لم يخلقنا لعبادته ، لانه فى غنى عنها ، خلقنا كى نلعب ونلهو وهو يتفرج علينا ويبتسم لنا، كما يتفرج الراعى على حملانه الصغيرة التى تقفز وتنط بين الازهار ـ بعدها سيحاسبنا ـ سيعاقب الذى سار بين الازهار ولم يستنشق شذاها ، والذى مر بالفاكهة ولم يقطفها ، نعم سيشوى ذلك الذى نظر الى الجمال نظرة عابسة سيقول له الله غاضبا : (لماذا خلقتك اذن !؟ لماذا جعلت لك قلبا وذوقا ؟) . اما ذلك الذى تعود الجمال والمتعة سيضحك سبحانه فى وجهه وسيقول له : (انك تعلمت الضحك فى الدنيا ، فهاك الضحك الابدي انك تعلمت كيف تستمتع بالجمال فهاك الجمال وهاك المتعة الأبدية ...)

عاش جدي طويلا وأظنه سيعمر قرونا أخرى ، كزيتونة عتيقة ، غاصت جذورها فى الارض واتصلت بالمياه الجوفية فتحدت جفاف قشرة الارض تقتلعها العواصف وتفتت فروعها فتخلف شجرة أخرى ، كذلك جدي لا أصدق موته رغم هذه الجثة الملقاة أمامى .

تحدثت عن جدي ولا أدرى هل قلت شيئا عنه ؟

هل استوفيت جزءا صغيرا من ذلك الكيان العظيم ، تداخلت ذكرياتى الخاصة وذكريات عائلتي وقريتى بل وتاريخ بلادى بذكريات شخصية جدي فتشوشت أمامى المسالك لأنى وجدته حاضرا فى كل شيء حتى فى رائحة التراب وجذور الزياتين .

محمد الجابلي

غليل السراب

شعر : محمد الغزالي

كهدير الموج الغاضب في رأسي
يمحو هذا الوجع القاتل صورة أشياء
بأخرى ،
يحملني نحو اللج بعيدا في صمت
يصخبُ حتى الغثيان ...

* * *

يدور القلم المتعب ،
هذا العالم من حولي يجري ،
جدران البيت تسافر نحو الأفُق
المصلوبْ ،
يشحب في عينيّ النورُ ،
لساني يثقل حلقي ...
ترتعش الأيدي
يتحول لون الأشياءِ إلى الأفْق .
أمامي يتغنى سربُ طيور ،
لكن غناءَهُ مرثيّةْ
وهواهُ شحوبْ ،
اليأس القاتم في جسمي يسري
كل مخاطر هذا العالم دون المهرب

ينغرس الألم الساخط في جسدي
كالفأس
يحفر فيه جراحا أخرى
يدفعه لعناق الموتِ
وهجر الشطآن

* * *

يتمطى ألمي يكبر حتى يتجاوز حجمي
يتطاير كالشرر الهارب من شرك النار
يتخطى صمتي ،
يجلدني لحظة أنساهُ ويسكن حين
أجاريه بلا أفكارْ ،
يتحداني هذا الألم المتكور في
جسمي يقفز في زاوية يسكن في
أخرى يتحين ساعة أخذ الثارْ .
أُصبح منه وفيه بقايا أمل خامد ،
يصبح هو أنا وأنا أتطاير مثل شرارْ ،
أتحرّر من قيد شعوري
أرْحل ، أُبحِرُ عبر محيط دون
قرارْ

لحظتها يتبخر أملي
يَحْدُونِي صمته للعوده
لكنْ يثقل رأسه – أيْ رأسي – همي
لن تُجدي الرحلة والأوبهْ
أملي يتفطر في أرجائي
كدوار الشمس
لو يزحف نحوي شبح الرمس
لو يقطع هذا الرأس
ألمٌ ...
ألمٌ ...
كل حياتي ألمٌ ...
ألمٌ كل العالم يغزو كل محاجرنا
يزهو فوق الجثث الملقاة بلا عدد
يختال ككسرى

بين هياكلنا الموبوءه
نحلم بالورد المزهرِ
في أرجاء حدائقنا
بنسيم يزجي البِشْر لنا
بظلال القمر المؤنس
بضياء الشمسِ
وشدو الطيرِ
ولحنِ الماءْ .
لكنّ غليل سراب الحلم
يظل بعيدا
ويظل العطش الصادي
بين جوانحنا
كصليل الحيّة يلفحنا
برياح السمّ
ليزهر في أنفسنا حلمُ الحلم .

باريس 5 / 3 / 1984
محمد الغزالي

قراءة في رواية « عائشة » للبشير بن سلامة

بقلم : حسني سيد لبيب

ملخص الروايـــة :

لرواية البشير بن سلامة (عائشة) ، مضامين اجتماعية وتاريخية ونفسية وثقافية . ويمكن تناول الرواية من زوايا مختلفة ، وتسليط الاضواء على جوانب عديدة . فالرواية كقطعة البلور تشع فى شتى الاتجاهات .

(عـائشه) البشيـر بن سـلامه زاخـرة بالحـركة والمعـانى والاحـداث والشخصيات . ولنقف فى البداية عند مضمون الرواية كما ترمز اليه عناوين بوابها الاربعة ، التى تشكل رباعية الـرواية ، وتحـدد أماكـن الاحـداث ، فالتقسيم هنا مكانى ، يمتد ليحدد مغزى الاحداث وتفاصيلها .

تبدأ الرواية « بباب العرش » ويرمز الى تطلع (الطاهر) ، الشخصية المحورية للرواية ، الى الجنة الموعودة ، وهى قصور الاغنياء . ويذكر قول جدته بأننا خلقنا عندما أغلق باب العرش . وفى فهرس معانى الكلمات ، يطالعنا معنى (بـاب العرش) : (يعتقد عامة الناس ان هذا الباب موجود فى السماء وعندمـا يفتح للانسان فطلباته كلها مجابة) . وعندما رحل الطاهر من قريته الى تونس العاصمة أحس أن باب العرش فتح ودله الى تونس . والباب الثانى هو «باب الخضرة» ، وهو الباب المفضى الى مخدع عادل ، حيث يمارس الجنس صنوفا شتى . والباب الثالث « باب سطح » عندما انتقل الطاهر وأسرته الى شقـة متواضعـة بحى شعبى ، ومن خلال نافذة بالسطح تطل عائشة على الشارع ، وعن طريقها تتعرف على العالم الخارجى بمجرياته وشخوصه . والباب الاخير « باب الجنان » ، حيث استقر الطاهر وعائلته بالقرية بمنزل بفناء واسع ومطبخ ، وفى ركن من المطبخ يوجد « باب الجنان » المفضى الى البستان .

والابواب الاربعة رموز أو هى دلالات للنقلات المكانية والحياتية للطاهر وعائلته . فتتلخص حياة الطاهر فى تطلعه الى تونس وحياة المدينة ومجتمع الاغنياء ، مودعا قريته ، ثم تتاح له الفرصة للعيش فى أحد القصور ، فيتعرف على خباياه ومفاسده . ثم يهجر القصر بأسرته ليقيم فى شقة متواضعة بحى شعبى ، ثم يهجر مجتمع المدينة الى القرية حيث نشأ ، لكنه حمل معه هو وأسرته بذورا فاسدة من المجتمع الذى عاش فيه .

فالرواية مدورة ، أى أنها تدور فى دائرة لتعود من حيث بدأت . اذ تبدأ بمجتمع القرية وتطلع أحد أفراده « الطاهر » الى مجتمع المدينة ، لكنه لا يسلم من مفاسد القصر الذى عاش فيه ، وحين يعود الى قريته ، تكون الصورة قد تغيرت تماما ، فقد ارتحل الى القرية بأوزاره وآثامه ، وتنوء عائلته بخطاياها .

يصدمنا البشير بن سلامة فى أول الرواية بموت عائشة ، تلك الصدمة يجابهها القارىء قبل أن يخوض فى أحداث الرواية . وعائشة هى ابنة الطاهر . يتعقب البشير ابن سلامة والدها منذ ارتحل الى تونس وأقام بقصر الفريك مصطفى ، وزواجه بزبيدة ، وانجاب عائشة . ويعد موت عائشة فى اول الرواية، صدمة نفسية متعمدة ، كصرخة حادة لادانة المجتمع ، إبان الحرب العالمية الاولى ، فى عصر البايات والحماية الفرنسية لتونس ، وتنتهى الرواية كما بدأت بموت عائشة ، محققا التدوير مرة أخرى ، أى العودة من حيث بدأ . والرواية كلها ادانة لحكم البايات وأعوانهم ، من أمثال « الفريك مصطفى » ، وهو يعد من عبيد البايات ، كما يعد البايات من عبيد الفرنسيين .

بـاب العـرش :

حاول « الطاهر » عدة محاولات للسفر الى تونس ، متطلعا الى جامع الزيتونة والقصور والحدائق والمقاهى والملاهى . ثم جرب السفر (بالكريطة) سرا حتى لا تفسد الخطة ، قاصدا ابن عمه . وقضى ثلاث سنوات فى رحاب جامع الزيتونة لم تثمر شيئا . وحين قرر العمل فى شركة (الترامواى) ، نهره أبوه الذى سمى الشركة « مدرسة الفساد » ، لانها شركة فرنسية . وذهب به الى صديقه « الفريك مصطفى » ووالد الطاهر (دائما يجرى وراء عظماء تونس ولكنه لم ينل من خلطته شيئا ولو حتى مظاهر العظمة) ص 36 . وخصص الفريك غرفتين للطاهر تضمان مكتبة خاصة به .

بـاب الخضـــرة

عاش « الطاهر » مع علية القوم . التقى بزبيدة ومال اليها . تراءى له القصر جنة موعودة .. (السمو بعينه مع أفراد القصر كلهم، والمعرفة والعلم مع «عادل» فى المكتبة وفسحة الامل عندما ينظر الى « زبيدة ») ص 62 . و « زبيدة »تكفل بها « الفريك » ، وكادت تقع فريسة لابنه « عادل » ، فتصدى لـه « الطاهر » مستغلا « دوجة » المرأة المكلفة بخدمته . فتنازل « عادل » عنها ، قانعـا بثالوث النساء « علجية » و « ربح » و « حليمة » الـلاتى يستجبن لنزواتـه . تـورط « الطاهر » مع « دوجة » . يقول لنفسه : (فتح لى « باب العرش » فدخلت نظيف النفس ، طاهر الذيل الى هذا البيت ولم ألبث أن ولجت « باب الخضرة » ثابت القدم فى حياة الدعارة والفساد ، والخذلان) ص 77 . ووافق « الفريـك » على زواجه بزبيدة .. (وتكفل « سيدى مصطفى » بكل المصاريف بطبيعـة الحال . وليس « للطاهر » الا أن يغسل ساقيه ، ويدخل على العروس) ص 88 .

بـاب سطــح :

خشى « الطاهر » على زوجته من « عادل » . أنجب « عائشة » الـتى صـارت البسمة الحلوةللجميع . ساءت العلاقة بين « الطاهر » و « عـادل » ، فسافـر « الطاهر » الى بلدته ، فسنحت الفرصة لتلتقى «زبيدة» بعادل ، وتتورط معـه أنجبت « الناصر » بعد تسعة أشهر ، فلا يشبه أمه ولا أباه . هو طفل الخطيئة .

قرر « الطاهر » مغادرة القصر ، ليسكن هـو وأسرتـه بحى شعبى . مات « الفريك » ، وبموته تنحل العلاقة التى تجمع أفراد العائلة ، عامل الاب ابنته « عائشة » معاملة طيبة ، بينما قسى على « الناصر » . ترددت « سكيلة » الارملة على بيته ، و « زبيدة » لا تبالى بشىء بعد انقضاء أيام العز .

نشبت الحرب ، فعانت الاسرة من نقص المواد الغذائية . انعكسـت آثـار الحرب على بيت « الطاهر » ، الذى تزوج « سكيلة » ، وعاد الى قريته .. وسجن « الناصر » لجريمة أخلاقية ، ودخل جيوش الحلفاء تونس ، وسجن « عادل » فى قضية قمار وفساد .

بـاب الجنـــان :

انتقل « الطاهر » وعائلته الى القرية . أقامت « زبيدة » وأولادها فى غرفة ، و « سكيلة » وأولادها فى غرفة ثانية . وتسلط « الطاهر » عـلى الجميع ، بعد

موت أبيه . خرج « الناصر » من السجن ، وأغرى امرأة أبيه ، فلانت ورضخت . بينا « سالم » أكب على مداعبة « عائشة » فزلت معه ، حاول خطبتها فرفضت أمها . وخطبت « لخالد » ، وبعد الزواج ، افتضح أمرها ، فطلقها بمعروف . مرض خالد بالشلل ، فطبته « عائشة » ، لكنها بدأت فى الهذيان . ومات «خالد» فتزوجت شيخا فى السبعين يدعى « المكنز » ، ووقعت فى حبائل ابن أخيه « الازهر » ، الذى تعرض لحادث أدى الى بتر يده .

مرضت « عائشة » بالسل . احتضنت بنت أختها ، وتمنت أن تموت معها ، وألا تبقى معهم ، فهم (أشرار لا يحبون البنت فهى اما موؤودة أو موجوءة) ص 170 . كما مات « سالم » فى حرب الهند الصينية .

تزدحم الرواية بعشرات الشخصيات ، تتداخل العلاقات فيما بينها وتتشابك ويظل « الطاهر » الشخصية المحورية التى بنيت عليها الرواية ، على الرغم من تسمية الرواية باسم ابنته « عائشة » . وقد ترجع التسمية الى أن « عائشة » ولدت فى ظروف غير طبيعية ، فنشأت تشرئب للعالم الخارجى ، وتتطلع اليه هى ابنة القهر ، والتردى ، والخطيئة ، والكبت . وهناك شخصية فى الظل ، لم يتضح لها دور مؤثر ، هى شخصية « على » من هو « على » ؟ يقول المؤلف فى مدخل الرواية : (ستكون رباعية « العابرون » عاجة بالاشخاص ولكنها ستستقطب أربعة منهم : عائشة وعلى وعادل والناصر) ص 5 . نعرف « على » فى مستهل الرواية ، ملتاعا لموت « عائشة » ، وهى رفيقة صباه ، مستعرضا أطوار حياتها .. فقد (قصت عليه عائشة قبل عام من موتها محنها ، ولكنه يعرف دقائق أخرى ، غابت عن « عائشة » وتلقفها من هنا وهناك) ص 11 . ويروى « على » الرواية كلها . وفى الصفحة الاخيرة يقول المؤلف : (هكذا مرت بخاطر « على » أثناء مراسم جنازة « عائشة » كل مراحل حياتها) ص 171 . ولم يظهر « لعلى » أى دور ، ولم يشارك فى أى حدث ، رغم أنه رفيق صباها . واخفاء دور « على » أو شطبه من الرواية ، وعدم تبين العلاقة التى ربطته « بعائشة » ، يبعث على الظن أن « على » هو مؤلف الرواية . يؤكد ذلك حرصه على تأكيد أهمية دور « على » فى مدخل الرواية ، رغم أن القارىء لا يكاد يتبين ملامحه أو شخصيته ، سوى حضوره جنازة « عائشة » رفيقة صباه .. وروايته لاحداث الرواية كلها ، كما مرت على خاطر « على » .

وفى الرواية أشياء حادة بارزة ، وهى الاسباب الموضوعية لتحريك الاحداث مثل : حكم البايات والحماية الفرنسية لتونس ، والاحقاد والرغبة فى الانتقام .

لكنها تتجه اتجاها سلبيا ، حيث تتخذ من الجنس والقمار والمخدرات مظهـرا لها ، دون أن يكون الاشخاص قادرين على فعل شيء سوى الاضرار بذواتهـم وتدميرها معنويا . وانعكس طغيان الرجل واستبداده على علاقته بالمرأة ، التى لم يعرف لها دور ، أيا كانت شخصيتها سوى ارضاء نزوات الرجل ، ويتردى الجميع فى الخطيئة واللذة المحرمة ، كذلك التفاوت الطبقى ، أدى الى اتسـاع الهوة بين طبقة الاثرياء وطبقة الفقراء المعدمين ، مما ولـد فى نفـوس الفقـراء أحقادا . كما لم تظهر فى الرواية أية علامة تشير الى تعليم الفتاة ، بل هى حبيسة البيت ، تعانى الكبت والقهر . فالشخصيات النسائية شخصيـات مقهـورة ، وتتبدى ايجابيتها فى الجرأة الوقحة على ممارسة الجنس .

وفساد البايات ، وممالأتهم الفرنسيين ، والتواطؤ معهم ، ترك أسوأ الأثـر فى نفوس الشعب . واستطاع البايات تحقيق مآربهم عن طريق فئة تعاونت معهم لمصلحتها ، وأثرت هذه الفئة ، وسكنت القصور ، وهم عليه القـوم ، أمثـال « الفريك مصطفى » ، الذى يقبل الظلم ويسخر نفسه لخدمة الظالميـن ونظام الحماية ، والفريك لا تهمه المفاسد بقصره طالما بقيت طى الكتمـان . فالفريـك يتنصل من المسؤولية ، ومن رعاية عائلته ورعايا قصره . تهمه صورته الظاهرة خارج حدود القصر . لكنه متأزم داخليا . وقـد كاشف الطاهـر بمعاناتـه ، فالفرنسيون يحتقرونه ، وكذلك البايات ، وهو معرض لغضبهم لاية هفوة وقد عزل مرتين ، ومنع عنه أصدقاؤه ، أو هم يمنعون أنفسهم .. (نعم أنا من الحاشية ولست من الحاشية) ص 100 . كما لا يتحرج الفريك ، فى زيارته لزبيدة بالحى الشعبى ، من مكاشفتها بأن الطاهر ثائر ضده ، غير راض عنه ، فهو من عبيد البايات ، والبايات من عبيد الفرنسيين ، والفريك يراه ابنه (من أتقى الناس وأورعهم رغم انه فى خدمة هؤلاء البايات، الظالمين السفاكين، العائثين فسادا فى الرعية مع نظام الحماية) ص 85 .

ورواية البشير بن سلامة مليئة بمشاعر الاستياء من الاستعمار الفرنسى ، ومن أمثلتها : خوف أم « الطاهر » ، من الرومى والجندية لما فيها من دفع فرنسا لأبناء تونس ليحاربوا لها . ووصف مراقب شركة الترام الفرنسى وهو يصعد يطلب التذاكر (وهو شامخ بأنفه كأنه قائد حملة من حملات الاستعمار) ص 36 ويدور حوار فى السجن بين « الطاهر » ، والمتفقد ، يكشف صورة مـن صـور استبداد المستعمر فى البلاد . وأصدقاء « خالد » يتهمونه بأنه تعلم الميوعة من الفرنسيين ، واعتبروه خارجا عنهم .

تكشف الرواية عن التفاوت الطبقي بين الفقراء والأغنياء ، بين ساكني القصور وساكني الاحياء الشعبية ، بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة . يقول البشير بن سلامة : (عالمان اثنان التقيا في هذين الشخصين : عالم « البلدية » وعالم ساكني الارياف . هما ركيزتان لتونس الخالدة ، امتزجا منذ الدهور ، وبقيا على طبائعهما تتلاقفهما أمواج الاحداث ، وتفرق بينهما حينا ولكنهما محكوم عليهما بالتلاقي والتفاعل والاندماج) ص 39 . وهي مقارنة ذكية لماحة معبرة ، قاصدا بالشخصين « الفريك مصطفى » و « أبي محمد » والد الطاهر . وكانت مغامرة الطاهر للسفر الى تونس ، تطلعا الى مجتمع المدينة ، هاربا من مجتمعه الريفي . يقول « الطاهر » لنفسه : (نعم كلنا سخفاء ، ضعفاء .. نعم خلقنا لنكون كذلك « الرومي » خلقه الله ليكون سيدا وأهل تونس جعلهم الله عظماء . أما نحن فاننا خلقنا عندما أغلق «باب العرش» كما تقولجدتي ص 15 لكن هذا الباب انفتح له عندما ذهب الى قصر « الفريك » وعاش فيه . ويمثل عادل طبقة الاغنياء . يتهم الفقراء بالسفالة قائلا للطاهر : إنكم (الوصوليون الفقراء الذين تعتزون بقدرتكم على اقتحام الحياة بجرأة ، ورقاعة لتقويم الناس وتأديبهم ، واشاعة العدل نقمة على ذوى اليسار) ص 84 . ويثور « عادل » على « الطاهر » ، حين يفاجئه وقت اتصاله بحليمة . يذكر له فضل أبيه عليه ، اذ انتشله من حياة الفقر . كذلك تتطلع « زبيدة » وهي بقصر الفريك ، أن تنال شيئا من الثروة والاملاك .

هذا التفاوت الطبقي ، خلق التوتر في النفوس ، فاتسمت تصرفاتها بالنقمة والحقد والثورة . نلمس ذلك في حقد أهل الطاهر عليه ، وزجرهم له اذ هو لم يذكرهم بخير أو عطاء ، ولم يؤد لاحد منهم أية خدمة بحكم معايشته لعلية القوم ، ويعتبرونه مجرد خادم ، وحين يغادر « الطاهر » القصر ويعيش فقيرا ، تظهر أحقاده لأهل القصر .

والأحقاد قد تدفع الى الانتقام ، لكن الانتقام يأخذ مظهرا سلبيا . فعائشة تلبى نداء اللذة (ملءا لفراغ حياتها ، وانتقاما من جسدها ومن نفسها ومن المجتمع) ص 167 . فالمجتمع لم يولها اهتماما ، ولم تكن الا متفرجة من خلال باب سطح على العالم الخارجي . وتشبعت بالحكايات الشبقية من النسوة العجائز ، واستمرأت مداعبات ابن أخي زوجها « الازهر » .. وكانت قبل قد فرطت في شرفها مع « سالم » ، وكان ذلك سببا لطلاقها من زوجها الاول ، فأصبحت زلتها الثانية انتقاما لما جرته عليها الزلة الاولى .

وحين أساء « الطاهر » الى « عادل » ، اضطر الى تـرك القصر عـدة أيـام . فاستغلت « زبيدة » غياب زوجها ، لترضى رغبة « عادل » ، طامعـة أن تنـال حظها من الثروة والاملاك . لقد خانت زوجها انتقاما لاساءته لعادل . و «الناصر» ابن الخطيئة ، يقابل معاملة أبيه السيئة ، بأن يوقع زوجته الثانية « سكيلة » فى الاثم ، هى شهوة الانتقام من نفس غير سوية .

وعلاوة على الخلفية السياسية والتاريخية لرواية « عائشة » ، فهناك ظواهر اجتماعية مثل : عدم تعليم الفتاة ، فلم يذكر أن بنتا نالـت حظها مـن العلـم والثقافة . كما أن الشخصيات النسائية يقعن فى الاثم والخطيئة نتيجة الكبت الضاغط عليهن ، فالرجل هو المسيطر ، وهو المستبد ، وهو الطاغية . الرجل هو الآمر الناهى . فتبدو النساء شخصيات مقهورة ، مغلوبة على أمرها . ومن سيرة حياة « الطاهر » نلمس كثرة الانجاب . تزوج « الطاهـر » امرأتيـن ، وانجب منهما أولادا ، طمعا فى تحصيل علاوة الانجاب.لكنها أبدا لا تعوض أو تغطى متطلبات المعيشة اللائقة ، ومن هذه الظواهر : التشاؤم والحسد . فقد تشاءم أهل القصر من « الطاهر » لان قدومـه ارتبط بحادث سقـوط العربـة و « الفريك » بداخلها . كما أن ناس الرواية لا ينطقون رقم خمسة أو مشتقاته ، أو يذكرون يوم الخميس صراحة .

وقد أدت هذه الظواهر الاجتمـاعية والسيـاسية والتـاريخية الى فسـاد البيئة ، وانهيار المثل والقيم ، والارتماء فى أحضان الشهوات الحسية ، وتعاطى المخدرات ، ولعب القمار ، والشذوذ .

ولعب الجنس دورا أساسيا فى « عائشة » البشير بن سلامة ، لابراز ما آل اليه حال المجتمع من فساد وانحلال ، لكنه فى سبيل ذلـك ، أسرف المؤلـف اسرافا مخلا ، ولم نعد نتبين شخصية سوية على الاطلاق ، اللهم سوى شخصية « على » الذى لا نعرف عن حياته شيئا ، وشخصية بنت أخت عائشة الطفلة ، التى ماتت وهى طفلة ، مثل موت الامل الاخضر فى النفوس اليائسة من الصلاح والاصـلاح .

فنساء الرواية تدفعهن الشهوة المحرمة،النزوة الاولى تتم عن رضى،ولا توجد حالة اغتصاب واحدة . الشخصيات النسائية مدفوعة لارضاء الجوع الجنسى . هذه « زبيدة » ترتمى فى أحضان « عادل » . و «سكيلة» مع ابن زوجها «الناصر» و « حليمة » زوجة الجنان مع « عادل » . و « سكيلة » مع «الطاهر» قبل زواجه

بها . و « عائشة » مع « سالم » ابن «سكيلة» ، ثم مع «الازهر» ابن أخي زوجها، الاول فض بكارتها والثانى خان عمه « المكنـز » .

نعب الرواية من خضم الجنس وعالمه المريض ، فينتابنا ما أصابنا من «سأم» البرنومرافيا . لا سيما أن « عائشة » البشير بن سـلامه جنحت الى الجنس الصريح ، ولم تومىء اليه ، والايماء يفي بالغرض ، وعلى سبيل المثال ، ايضاح علاقات «عادل» مع «علجية»، و «ربـح» و «حليمة» . وسلوك «الناصر» مع زوجة أبيه . وطالما سادت فوضى الجنس بين شخصيات الرواية ، فان من طبيعتها التلصيص والتجسس والتنصت والمراقبة والترصد ، وهى أعراض واضحة.. مثال ذلك ثقب « الناصر » ثقبا فى جدار ليرى مفاتن زوجة أبيه ، وتنصتت « عائشة » لسمـاع الحكايات الشبقية مـن العجائـز ، وسماعها الحكايـات والنصوص الجنسية من « سالم » واستمراء مداعباته . وعكوف « عادل » بغرفته فى انتظار من تطرق باب الخضرة . وقد يكون الواعز لذلك ، ايمان البشير بن سلامة بحرية الفنان فى اقتحام عوالم الانسان الخفية،فى ضوء الواقعيةالنقدية.

وعلاوة على وباء الجنس الذى فتك بأصحابه وهد كيانهم وشـل ارادتهـم ، فهناك أوبئة أخرى كتعاطى المخدرات ولعب القمار والشذوذ والتهور والطيش ، وامتدادا لتردى شخصيات الرواية فى الرذيلة،تعرض شخصيتان غير سويتين «عادل» المتخنث وشذوذه ، و « الناصر» ابن الخطيئة بتهوره واستهتاره . بينما تبدو النساء شخصيات مقهورة ، وان كن يفرضن سطوتهن باللذة الجسدية ، يجابهن بها استبداد الرجل وطغيانه متمثلا فى « أبى محمد » و « الطاهـر » . فبيسما تبدو شخصية « الفريك مصطفى » انهزامية استسلامية ، تؤمن بسلامة الظاهر غير عابئة ببواطن الامور ، تؤمن بالشكل دون الجوهر .

وتبد « عائشة » شخصية قدرية . كتب عليها العيش فى وسط مريض ، فتمرض بذات الداء ، وتقع فى الخطيئة . وسرعان ما تذبل زهـرة شبابهـا ، تمرض بالسل ، وتموت ، فعائشة بذرة بذرت فى تربة غير صالحة ، فلم تقو على النماء ومواصلة الحياة . هى شخصية مقهورة ، عانت من الكبت والضغـوط ، كالنبت الاخضر فى تربة غير صالحة ، سرعان ما يذبل ويموت . هكـذا ماتت « عائشة » ، وماتت معها بنت أختها الطفلة ، وتتحقق بذلك أمنية « عائشة » بأن تموت معها ، حتى لا تقع فى المحظور ، وتنال من الشقاء ما نالته هى .

الموت ،يجابهنا فى أول الرواية ، وفى نهايتها ، وفى تضاعيفهـا ، فعائشة تموت ، والفريك مصطفى ، وأبى محمد ، وخالد ، وسالم ، وابنة أخت عائشة . على أن موت « عائشة » فى صدر شبابها ، يتمثل قبالتنا نصلا داميا ، وتتجسد فجيعة الاب فى ابنتــه .

ويلتاع « علي » لموتها. يحس بوخزات كوخزات الابرة تضرب سويداء قلبه. وينتصب « خالد » زوج « عائشة » الاول ، وبيده (نافعة) يهوى بها على ربيب عائشة « سالـم » . يجسد المؤلف هذه الصورة ، كأنها واقع يعيشه « عـلى » ، يدعمه بصورة حسية .. (وتلاحقت الضربات مدوية فى أذن على وتعالى صراخ سالم) ص ١٥ .. ثم افاقة للواقع ، كمن ينهض يقظا من حلم يرتبط آخر خيط فيه بأول خيط من دنيا اليقظة .. (ولكن على فرك عينيه وتبين لـه أن الصراخ آت من دار الميت وان الضربات صادرة عن النعش الذىكان يحاول القوم ادخاله من الباب ومصراعاه يتلددان فى الطاعة ويصكان بقوة الجدار) ص ١٥ . صورة الضربات المدوية تعيش فى وجدان « على » ، تفصله عن دنيا الواقع ، لترده اليها متنبها ، لتكون الضربات صادرة عن النعش . وتستبطن نفسه هذه الضربات ، لصورة وقعت فى الماضى وتحترها نفسه ، فى الوقت الذى نلمس نفس ايقـاع الضربات لاصطدام النعش بالجدران القوى. يحاول الروائى أن يكشف عن الغلالة الشفيفة بين عالم الواقع وعالم الخيال ، والذى يربط ما بين العالميـن ، شيء غامض فى النفس البشرية ، قد يتجسد فى الاحلام أو فى التكهن بالمستقبل ، أو فى الايحاء ، وما الى ذلك من مصطلحات أقرب الى الدراسات النفسيـة لشـرح مدلولاتها وبواعثها .

يعبر الشبيبر بن سلامة عن لوعة الموت لدى الأب المفجوع ، بأسلـوب فنى ، يعمد الى الرمزية البسيطة المحببة ، متجنبا التعبير الانشائى عما فى أغوار نفس « الطاهر » ، والد عائشة ، ليستعيض عن ذلك بصورة حركية تتمثل فى حركة الذبابة التى اقلقته ، (وأبت الا أن تزور تـارة منخريه وطورا مآقى عينيــه ، وكأنها تتجسس عليه ، وتريد أن تعرف مدى حزنه من دمعه ومخاطــه . وكأنه فطن الى خزعبلاتها فترصدها وحرك يده بسرعة وتلقاها بعيــدا قليــلا عــن عينيه وقبض عليها قبضة هالكة. ونادى عند ذلك المنادى الى الجنازة وتبع الناس النعش الى الجبانة) ص ١٥. فضيق « الطاهر » بحرية الذبابة ، هو ضيق بالموت ذاته . والتساؤل الذى طرح (من يأخذ بثأر عائشــة ؟) ص ١١ . وبعد قتـل الذبابة المضجرة التى هاجمته لحظة الفراق ، اذا بذبابة اخرى تتراقص أمـام

غيثيه . ولنقف قليلا عند هذه الصورة الحركية البارعة .. (ولكنها لا تقدر على المكوث طويلا في مآقيه . فحركة يد الطاهر المصافحة للمعزين لا تترك لها الفرصة للأخذ بثأر أختها المقتولة منذ حين) ص 11 . حركة اليد باعثها مصافحة المعزين باعث ظاهر ، لكن الباعث الخفي هو أنها لا تتيح للذبابة أن تثأر ويعقب هـذه الصورة تساؤل عن ثأر عائشة ، فتكون الصورة الحركية للذبابة الثانية ، هي المقابل الموضوعي لما تضمره النفس بشأن ثأر عائشة . بينما قتل الذبابة الاولى ، هو تعبير عن الضيق والتبرم من الموت .

كما يرصد الروائي أحداثا تقع مصادفة ، مثل موت عائشة وبنت أختها بنفس المرض وفي نفس اليوم ، فيجمعهما نعش واحد ، مثلما جمعهما الحـب . هي صورة من صور الرومانسية المغلفة برهافة حسن كاتبها .

ومن صور التعبير عن (الموت) بطريقة حركية ، تبين عـن تعاسـة النفس الانسانية ازاء فناء الجسد .. صورة ضمنها الكاتب كل ما يـود التعبير عنه ، استغنى عن تصوير حالة التعاسة ، بكلمات وصفيـة للمشاعـر والاحاسيس المقهورة ، ليضعها في اطار صورة حركية ، تتمثل في الدجاجة السوداء التي (تجهد في أن يصل منقارها الى ما في « العجاني » من عجين أعد « لحمى » الخبز في « الطابونة » . انها تبدو له وكأنها الغراب في هجومه على الجسم الذى فارقته الروح ينهشه نهشا ويحيله عظما . لكأنه القبر يحتضن الميت فينسيه بأكـل لحمه ودمه عذاب الدنيا وآلام الجروح التي أثخنـت الجسد) ص 16 . وهـذه الصورة عبر بها عن مستقبل الطاهر الحالك ، كهـذه الدجاجـة السـوداء . فمستقبله مقرون بالصورة المقززة لنهش لحم الميت ، برغم ترفق الروائي بنا ، فصور السلوى في أن القبر يحتضن الميت وينسيه ما لاقى من عذاب في الدنيا ، براحة الجسد مما أثخنه من آلام .

قد يلجأ الروائي الى مخاطبة القارىء مباشرة ، متخطيا الحاجز الذى اصطنعه، كراوية لاحداث الرواية ، مثلما جالت بخاطر على مثال ذلك حديثه عـن الشيخ حسن ، يصفه ويحلل سلوكه ، ويكمل حديثه عنه مخاطبا القارىء قائلا : (أما اذا تكلم فلا تبحث عن شبيه به لأنه ارتضى أن يأخذ من الديك « سردكته » ومد عنقه وهز جناحيه . ولا يذهبن بك الظن أنه سيغير من هيئته..الخ) ص 29.

يعتمد أسلوب البشير بن سلامة على الوصف والتحليل للواقـع التـونسى والعادات التونسية ، وقد يقف بالقارىء عند حي أو منطقة مسهبا في الوصف

بعين الفاحص المدقق . لذا نجده يطعم روايته بكلمات شائعة فى اللهجةالتونسية معتمدا على الثبت بآخر الكتاب عن معنى الالفاظ ، وان لجأ أحيانا الى شرحها فى سياق الرواية . مما يجعل قارئه متعايشا مع المجتمع التونسى ، قريبا من عادات أهله وثقافتهم . مثال لهذا وصفه للباس والد الطاهر ولباس الطاهر ، فيقول : (هو بجبنه وكل ما يتماشى معها من توابع ووالده بقميصه (سورية مدورة) بدون ياقة والمسترسل الى الكعبين « وبحرامه » (عباءته) وبلغته ، وشاشيته « المزملة » بعمامة « تبرورى » [قماش محبب] وهو لباس العامة) ص 34 . هنا شرح معنى القميص والحرام والتبرورى ، وفى فهرس الالفاظ يضيف مزيدا من الشروح للحرام أو التبرورى.ولولا شروحه وتفاسيره لمدلولات الالفاظ الشائعة فى اللهجة التونسية ، لا ستعصت بعض المعانى على القارىء غير التونسى .

كما أنه مغرم بوصف الاماكن ، مثل وصفه لباب سويقة التى (تعج بالناس وبطحاؤها تموج بالعربات (الكرارس) وبالبراوطية الذين يتفننون فى وصف سلعهم من بطاطا وطماطم ، ورمان ، ودقلة ومادلينة وقسطل وموز و « الشياتة » يغدرون ويروحون والتراماوى يئز بصوته المألوف ، والناس يتساقطون عليه كالذباب الحافل قرب عراجين « الدقلة » المعلقة فى واجهات دكاكين الغلال ، أو اللاصق بطوابق اللحم المزينة لحوانيت الجزارين) ص 34 . وانصب الوصف على بائعى الخضر والغلال أو « البراوطية » وماسحى الاحذية أو « الشياتة » .

وبرغم ولوع الكاتب بالوصف والتحليل ، الا أننا نفتقد وصف ملامح شخصيات الرواية ، فلا يحفل الكاتب بها ، وانما هو يتجه الى الدافع النفسى والى الفعل مباشرة ، تتخلل ذلك استراحات قصيرة ليصف ويحلل الواقع التونسى ، والاماكن التى تدور فيها احداث روايته . وان لجأ الى وصف الملامح ، فلخدمة الدافع النفسى أو الفعل ، ودون ذلك نتعرف على شخصيات الرواية بنزعتها ودوافعها وأفعالها .

وقد يبالغ فى الوصف ، أو يكون الوصف غير مطابق للغرض ، وهى حالات قليلة .. مثال ذلك تشبيه صوت نقنقة الضفادع بالموسيقى . فالنقنقة برتابتها لا تتلاءم مع ما تشيعه الموسيقى فى النفوس . وفى قوله : (أما النساء فيوم الجمعة مع أصحابه فى حومة .. يقضى وطره منهن وضميره مرتاح) ص 71 . فكيف تتأتى راحة الضمير مع قضاء الوطر ؟ ربما هى راحة نفسية باشباع اللذة الجسدية ، ولكن ما دخل راحة الضمير فى هذا ؟ ربما كان المقصود أن يقضى

وطره دون الوقوع فى مشاكل . « فدوجة » خادمته أو وصيفته ، واذا مالبى نداء الاغراء الصادر منها ، فان ثقة « الفريك » فيه ستهتز ، ويقع فى مشاكل هو فى غنى عنها . وفى كل الاحوال ، لا أجد أن قضاء الوطر باعثا على راحة الضمير .

وفي وصف « الأم عزيزة » يقول : (أما الجبين فلا جبين وفاء ربما للقرد جد الانسان) ص I22 . متأثرا بنظرية داروين عن أصل الانسان ، مع المبالغة فى رسم صورة منفردة للعجائز وانسياقه فى الوصف المسهب لاخت زبيدة والتى تدعى « خالتى » و « أمك عزيزة » فهى ـ بتعبير المؤلف ـ ليست من فصيلة الانسان ولا الحيوان .. وبالغ فى تصوير قبحها ، واسترسل فى هذا ، باسراف أعتبره مخلا للسياق .. حتى أنه يلتمس من قارئه العذر ، فيقول : (واعذرونى اذا أنا لم أملك قلمى فى هذا الوصف ولم أدققه) ص I23 .

وقد يجنح به الوصف ، الى الاسترسال فى تعقب المشبه ، بطريقة قد تجهد القارىء ، وتصرفه عن المعنى المقصود .. مثل قوله : (ولكن الزمن المرفوق بآفة الغفلة والتهاون أضر بالغرفة وافسد وجهها وطعن وسامتها بخنجر الاهمال ، فانقلبت الطعنات ضفائر تنحل فى صمت الانهيار ، وتتهافت تحت لمسات رفيق التلاشى وميت الانتهاء فتئن بأنين خشبها ، وتدمع عينها بدفق رطوبتها ، وبتناثر جلدها فى أناة ضيقا بالحياة وتعبا اليما) ص I35 . وبرغم ذلك ، أعتبر هذه الفقرة صورة جمالية أجاد رسمها يراع شاعر ، لكنه أسلوب يبتعد عن أسلوب الرواية كلها ، ويمثل (نقلة) فجائية من الاسلوب الواقعى ، الى أسلوب يتسم بالشاعرية .

ويعج الفصل الثالث (باب سطح) بالعديد من الشخصيات ، وتغيرت لغة القص .. فبدلا من الغور فى تحليل الاحداث ، أسهب المؤلف فى وصف الشخصيات ، وازدحام بيت (الطاهر) بالعجائز ورغبته فى الزواج من (سكيلة) التى تزوره هى وأولادها . وربما قصد هذا الازدحام فى مكان ضيق ، كشعاع ضوء كاشف لحياة الطاهر العائلية ، ولامبالاته ، ارضاء لنزواته وشهواته .

وازدحمت الرواية بالعلاقات الجنسية ، وتداخلها ، ولو أن مؤلف (عائشة) قصد الرمز والايماء بدل التصريح ، والايجاز بدل الشرح ، لكان أفضل . حيث أم الجنس لم يقصد لذاته ، وانما كان ضروريا لنمو وتكثيف الخط الدرامى ، وكشف صور المفاسد فى حقبة معينة .

وقد شكلت كلمات الرواية تشكيلا كاملا ودقيقا ، مما لم نعهده فى الكتب الحديثة الا فيما ندر ، وذيلت بفهرس لشروح الكلمات الواردة باللهجة التونسية وبذلك تستقطب الرواية جمهورا عريضا من قراء العربية ، وبالرجوع الى الفهرس ، نلمس تقاربا بين اللهجتين المصرية والتونسية مثل (البسيسة) و (البشكير) و (بلغة) و (الشيشة) و (الطابونة) وما الى ذلك . كذلك نلمس بعض التقارب بين العادات ونمطية الحياة التونسية والمصرية .

ان لرواية الاستاذ البشير بن سلامة (عائشة) ، قيمة اجتماعية وتاريخية ، فعائشة هى الصرخة الزاعقة لادانة عصر ، ومجتمع ، ونظام حكم تواجد فيه الدخلاء وأعوانهم . وتتسم الرواية بالقدرية ، وتسليط الاضواء على تيار كان سائدا ، واشاع روح الهزيمة والاستسلام فى النفوس . واذا كانت الرواية تفتقد بصيص ضوء ولو باهتا ، فالصورة برغم سوادها ، ترنو الى المستقبل ، ترتجى منه التغيير والاصلاح .

حسنى سيد لبيب
(القاهرة)

من مؤلفات الاستاذ البشير بن سلامة

★ قضايا

★ الشخصية التونسية

★ عائشة (رواية)

★ نظرية التطعيم الايقاعى

★ لوحات قصصية

الأرض والأطفال

شعر: محمد البقلوطي

فيِ الحيِ ذا ... بَيتٌ عتيقٌ قد تداعى للسّقوطْ
فيِ البيتِ ذا ... مصباحُ بترول كئيبْ
يَرفعُ ايات القنوط
فيِ البيت ذا ... صَبيّةٌ مذعورةٌ
وصِبْيَةٌ ، وامرأةٌ ثكلى تَمُوتْ
فلا تسلْ ... لا ! لا تَسَلْ عن أيِ شيءْ
فكلّنا نعرف كل شيءْ
وكلّنا ...نَمُوتُ عِرقًا بعد عِرقْ

* * *

فيِ الحيِ ذا ... يَنتشرُ الأحبَارُ في كلّ الجهاتْ
يُلقّنون الصبيَةَ التوراة
يُقدّمون الكعك والحلوى .. لأطفالٍ حُفاةْ
لكنْ فقط .
صغارُ هذا الحيْ..
ليسوا من الصغارْ
صغار هذا الحيْ ..
لا يفرحون بالهدايا كالصغارْ
صغار هذا الحيِ ...
وَمنذُ أن تمّ الحصارْ ..
باعوا الكرى
وعانقوا الأشجارْ

رسالة الخرم والخزم

بقلم: محمد العياشي

كنت أجبتك ـ ارشدك الله ـ عن سؤالك حول موضوع الدوبيت فافظ بيت اليك بحقيقته ووجه الرأى فيه . وها أنا أجيبك اليوم عن سؤالك حول موضوع الخرم والخزم فى الشعر العربى وما تعريفهما وكيف تفسيرهما وأى مذهب من التعسف والمجازفة يذهب الباحثون والعروضيون فى فهمهما والقول بوجودهما .

١. الخـــرم :

الخرم فى اللغة من قولهم : « **ما خرمت منه شيئا** » أى ما نقصت منه شيئا ، فهو يحمل معنى النقص . وفى أصطلاح العروضيين وكما يعرفه ابن رشيق هو : « ذهاب أول حركة من وتد الجزء الاول من البيت . وأكثر ما يقع ذلك فى البيت الاول » وهو كالذى فى هذا البيت لهدبة بن خشرم :

إنـي من قضاعة من يكدهـا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أكده وهي مني فى أمـان (١)

وهو من الوافر والتفعيلة الاولى (إنـي منـ) (فـاعلتـن) بسكون اللام . وأسقط المقطع الاول (مـ) من (مفـاعلتـن) .

ذلك الخرم كما يفهمه العروضيون ، وهو فهم خاطىء لان قولهم « ذهـاب » كما يقول ابن رشيق وقولهم : « سقوط » كما يقول ابن عبد ربـه يـدل على استخفافهم بشأن الكميات الايقاعية وجهلهم بمفهومها . وهى نظرة بـدائية

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، الجزء الاول ، صفحة ١٨١ .

بعيدة كل البعد عن الاصالة العلمية والمعرفة الفنية الفعلية والعملية بأمور الايقاع لأن الايقاع كميات ثابتة لا تنقص ولا تزيد . ولا تنقص الا فى إطار الاسكات وهو ما ثبت واستقر فى مواطنه المعروفة وباجماع الشعراء كلهم عليه .

وأما قولهم : «أول حركة من وتد الجزء الاول من البيت» والجزء هو التفعيلة ففيه تمويه ومغالطة لانهم بذلك يبرزون الامر وكانه قضية فنية فى ميزان الشعر العربى لها صلة بالاوتاد والتفاعيل وبأصل الايقاع ومن صنع الشعراء انفسهم

والخرم كما افهمه انا مشكلة لا يد للشعراء فيها وانما اختلقها العروضيون وافتعلوها افتعالا لا عن نية الاساءة الى الشعر وأوزانه ولكن عن تضاؤل منهم وقصر باع وتورط فى أمور تمتنع عليهم لدقتها وتجل عن ادراكهم . ولو دعيت الى تعريف الخرم لقلت : « هو حذف حرف العطف الواقع فى بداية البيت الاول ـ لا أقصد المطلع ـ من قطعة مقتطفة من قصيدة بغية الاستشهاد بها أو قصد ادراجها فى تصنيف ككتاب الاغانى أو ديوان الحماسة أو ما أشبه ذلك لعزلها عما يسبقها من الكلام بحذف حرف العطف الذى يربطها بما قبلها جريا على سنة كانت دارجة عند القدماء » .

وقلت : « حذف حرف العطف » . ولم أقل : « حركة من وتد » للاشعار بأن المسالة لا تتصل بالميزان فى جوهره وأصل تركيبه ولا بالشعر عند تأليفه ولا بالشاعر عند نظمه وأنه لا يزيد على أنه تصرف حادث بعد ذلك على يد الرواة والمصنفين والنساخ . واحترست فى قولى : « لا أقصد المطلع » ، وهى جزئية هامة اذا كان المقطع المحذوف حرف عطف . ولو كان الباحثون والعروضيون على شىء لتساءلوا عن سبب ذلك ؛ ولو فعلوا لتوصلوا بيسير جهد يبذلونه الى معرفة الحقيقة وهى قريبة ميسورة المنال .

ذلك كل ما يقع فيه الخرم او جله ؛ فيكون أصل البيت كما جرى على لسان الشاعر :

وإنـي من قضاعة من يكدها اكـده وهـي منـي فى امـان

بواو الاستئناف . وتكون التفعيلة الاولى (وإنى من : مفاعلتن) .

وأما ما عدا ذلك فهو من تحريف الرواة والمصنفين والنساخ **وقصور** الكتابة عن أداء وظيفتها فى عصور كانت فيها وليدة تتعثر فى **خطاها** . وذلك كالذى فى هذا البيت الاول لكثير :

أالحق إن دار الرباب تباعدت أو انبت حبل ان قلبك طائر
زع النفس واستبق الحياء فانما تباعد أو تدني الرباب المقادر
وهبها كشىء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيبته المقابر (2)

كذلك ورد البيت الاول فى الاغانى بالهمزة القطعية فى (الحق) وبان الشرطية على إثرهـا .

وإذا قبلنا بهذا الشطر على ما هو عليه لم يكن ذلك ممكنا الا على **أساس** الخرم فى الجزء الاول من الطويل (عـولـن) (أالحـق) بسكون القاف **بدلا من فعولن** . ولا يخفى ما فى ذلك من التعسف على الشعر إيقاعـا ومعنى . **وأن** الصواب الذى جرى على لسان الشاعر هو أن يقول : (أ ألحـق) (**فعـولـن**) بهمزتين مخففة ثانيتهما مدغمة فى الاولى التى للاستفهام (أ الـ) (**فعـو**) . وأن المسؤول عن هذا هو سوء سماع الراوى أو سوء نطقـه أو سوء رسـم الناسخ . وذلك ومثله هو الذى جعل العروضيين يقولون بوجود **الخرم** .

ولو فرضنا أن خرما يكون فانه لا ينبغى أن يكون فى هذا الصدر **بالذات** لانه يحونه الى شطر من الكامل يدس ضمن قصيد كله من الطويل ؛ وهو ما لا يكون أطلاقا الا فى مثل هذه الحالات . انظر ما طرأ على ذلـك الشطـر من الاختلال بذلك التهاون البسيط . وليس الايقاع وحده ما لحقه الضيم بذلك التحريف بل وحتى المعنى اذ ليس الخبر كالانشاء . ويـزداد المعنى اختـلالا بكسر همزة (إن) الواردة بعد (أ الحـق) والتى رسمت فى كتاب الاغانى على أنها الشرطية وما هى بتلك ولكنها المؤولة بالمصدر مخففة على أن يكون المؤول مجرورا بلام التعليل محذوفة أو بالاضافة الى (من أجل) محذوفة أيضا وهو ما يستقيم به المعنى . فيكون معنى البيت : (أصحيح أن قلبك قد طار إشفاقا وفزعا لبين الرباب وانصرام حبلها ؟) بمعنى الانكار والتعجب نهوينا للخطب وتحقيرا لشأنه وأنه ليس فى الامر ما يدعو الى هذا الجزع كله . وهو ما تؤيده بقية الكلام .

---

(2) الأغانى ، المجلد الاول ، القسم الاول ، صفحة 95 ، بيروت 1956 .

وكقول ابن الدمينة تركيبا ومعنى :

أأن هتفت ورقاء في رونــق الضحى   على فنــن غــض النبــات من الرنــد
بكيت كمـا يبكي الوليـد ولم تكـن   جليدا وأبديت الذى لم تكن تبدي!(3)

والمعنى : (ألأن حمامة هتفت تبكي بكاء الوليد الذى أعياه مطلوبه ! ويبلـغ منك الضعف والجزع درجة لا تقوى معها على امتلاك مشاعرك !) والاستفهام دائما للتعجب والانكار تهوينا للخطب .

وكقول الاسود بن عبد يغوث :

أتبكـي أن يضـل لـهــا بعيـر   ويمنعهـا مـن النـوم السهـود !
فـلا تبكـي عـلى بكـر ولـكــن   عـلى بـدر تـقـاصـرت الجـدود
ألا قـد سـاد بعـدهـم رجــال   ولـولا يوم بـدر لم يسودوا (4)

والمعنى : (أمن أجل بعير أضلته تبكي ويحالفها السهاد ! وهل فى ذلك مـا يدعو الى استنزاف الدموع ؟ ألا من كان باكيا فليبك قتلى بدر . أولائك نكبهم الحظ وعضهم الدهر وكان رزؤهم كبيرا) .

هذا ، وليس للخرم فى نفسه ـ إن قال به قائل ـ عظيم خطر ، ولكن الخطر كل الخطر أن يحتج به أصحاب النظريات الواهية ليوطنوا لنظريات مهتـرئة لا سند لها الا ما يتوشحون به من الالقاب ولا حجة لها الا ما لهـم من الهوية والانتساب وذلك كستانيسلاس ڤويـار Guyard ؛ وقد فعل أو كالذى قد يحتج به كمال أبوديب من قول امرىء القيس :

شحت دموعى فى الـرداء كأنهـا   كلى من شعيب بين سـح وتهتـان

كذلك بالشين فى (شحت) والصواب (سحت) ليستقيم المعنى . والخرم فى صدر البيت يحوله من الطويل الى الكامل وهو ما يوافق هوى الدكتور اذ يزور به حجة أخرى يضمها الى حججه السابقة التى لفقها من ألـف خـرقة وخرقة للقدح فى النظرية الكمية والتمهيد لنظريته فى النبر . ذلك أنه لم يقتصـر

(3) ديوان الحماسة ، الجزء الثانى ، باب النسيب ، صفحة 101 .
(4) ديوان الحماسة لأبي تمام ، الجزء الاول ، باب المراثى ، صفحة 361 .

لتحقيق غايته وبلوغ هدفه على الخرم وحده بل راح يتسقط الابيات المشوشة المشوهة وكل شاذ لا يعرف مأتاه .

وأما قوله : إن أذن المتلقى قد قبلت ذلك التشويش ولم تنفر منه فمن يضمن له ان الكتابة قد اضطعت بتجسيم الدقائق الايقاعية كما وردت على أذن المتلقى وهى إنما وضعت لتدوين النثر ؟ وتلك هى النقطة التى لم يتفطن الدكتور الى خطورتها . ولذلك أحيله على رسالة المقروء والمنطوق (5) فليرجع اليها ليعلم وهن السند الذى اعتمد عليه .

ولئن كنت اشترطت فى صاحب البحث أن يكون ممن مارس الشعر فلأن ذلك ما يمنحه القدرة على التمييز بين ما يكون فى الشعر وما لا يكون ، وبين ما يمكن لمثله أن يجري على لسان شاعر وما لا يمكن أن تجري بمثله من الاغانيط والاوهام الا أقلام المدونين والمصنفين والنساخ . فيقوم له ذلك مقام الغربال الذى ييسر له عملية الاحصاء ويدقق له عمية التصنيف ويضمن له أن لا تختلط الحقيقة عنده بالزيف ولا يزن الفاسد الردىء بميزان الجيد الرفيع .

II. الخــزم :

والخزم فى اللغة من قولهم : « خزم البعير » أى جعل فى جانب منخره الخزام وهو حلقة يشد فيها الزمام . فهو على عكس الخرم يحمل معنى الزيادة . وفى اصطلاح العروضيين ، هو زيادة حرف أو أكثر فى صدر الشطر الاول من البيت الشعرى وينعت بأنه علة غير لازمة .

وهو كالذى فى مطلع دالية النابغة المشهورة :

أمـن آل ميـة رائح أو مغتـد عجـلان ذا زاد وغيـر مـزود

والخزم فيه يتمثل فى زيادة الهمزة (أ) فى أول البيت الذى ينبغى أن يكون إيقاعيا كالآتى :

مـن آل ميـة رائـح أو مغتـد عجـلان ذا زاد وغيـر مــزود

فهو من الكامل والدورة الاولى منه (من آل ميـ) تطابق فى الوزن (متفاعلن) بسكون التاء . واذذاك تكون الهمزة فائضة عن حجم الدورة وبالتالى فائضة عن حجم البيت .

---

(5) صدرت فى مجلة « الفكـر » (العددين 5 و 6 لفيفرى ومارس من سنة 1980) .

ذلك الحزم كما هو فى فهم العروضيين . وجدير بالملاحظة أنه فهم خاطىء اذ لا وجود للخزم فى الشعر ولا وجود له الا فى أذهان العروضيين الـذين تكسرت معاولهم على صخرة الايقاع فتشاغلوا بأمور افتعلوهـا افتعـالا فهى من محض ابتداعهم ؛ ومن ذلك مسألة الخزم هذه . وهـم لم يفتعلوهـا بنيـة الاساءة الى المعرفة ولكن عن تقاصر منهم عن منال شىء لو دققـوا فيه النظـر لكان يسير المنال .

والخزم فى حد ذاته ـ كالخرم ـ لا خطر له إن قال به قائل ولكن الخطـر أن يحتج به الباحثون احتجاجهم بالخرم توطئة لنظريات مهترئة ما كان لمثلها أن يقوم لولا استنادها الى مثل هذه الاغاليط والاوهام . ومن ذلك نظرية كمـال أبو ديب التى ينكر فيها أساس الكمية فى إيقاع الشعر العربى. وما كان ذلك ليتماسك له أو يقوم لولا وجود ظواهر غريبة وشاذة فى الشعر العربى منها ظاهرة الخزم . لانه اذا صح أن :

(مـن آل ميـ) = (أمـــن آل ميـ)

إيقاعيا فان ذلك مما يبطل دور الكم فى إيقاع الشعر العربى لأن :

(مـن آل ميـ) ≠ (أمـــن آل ميـ)

— ᴗ — — ᴗ   — ᴗ — —

2 1 2 2 1   2 1 2 2

8 ≠ 7

كميا . ويحتج كمال أبو ديـب على ذلك بقـوله : « يتـأكد اذن أن النبر هو الفاعلية التى تعطى الكتلة الوزنية طبيعتها الايقاعية وتحدد وحداتها المكونة ، ويبدو من الطبيعى القول ... إن النبر فاعلية تتجاوز التشكيل الكمي للكتلة الوزنية وأن الكم يمكن أن يهمل لكن النبر لا يمكن أن يهمل . وستظهر هذه الدراسة أن هذا المبدأ هو المفسر الاكثر معقولية لظواهر فى العروض العربى يستحيل فهمها دون تطبيقه » (6) . وقد أصدر هذا الحكم فى مساق الحـديث عن الخزم وعن بيت النابغة بالذات .

---

(6) فى البنية الايقاعية للشعر العربى ، صفحة 255 الدكتور كمال أبوديب).

فاذا كان الامر كذلك فلا بد من سد الطريق فى وجهه بنفي الحزم وإبطال القول به فى الشعر العربى . ومن الشيق أن كمال أبو ديب قد اهتدى الى تفسير هذه الظاهرة فى بيت النابغة ؛ وهو ما ورد فى (صفحة 258) ، ولكنه لم يعطه كبير وزن لانه لا يخدم نظريته فى إبطال دور الكم ؛ بل مر عليه بسرعة كالمتردد وغير الواثق اذ يعبر عن رغبته فى استفتاء القراء العرب فى شأنه . وينسى أن الاستفتاء لا يكون فى ما ثبت واستقر وأن الفتوى لا تكون فى ما نصه صريح .

والتفسير الوحيد لبيت النابغة هو أنه قرىء بتحريك النون فى (أمن ال ميـ) بالفتح وإدغام الهمزة فيها مخففة (أمنال ميـ) (متفاعلن) وهو ما يحقق التعادل الكمي الزمني بين عامة الدورات الايقاعية فى البيت المذكور :

(أمنـــال ميـ) == (متفـــاعلـــن)

ن ن ن – ن –   ن ن ن – ن –

I I 2 I 2   I I 2 I 2

7   7

وهو ما يدخل فى باب تخفيف الهمزة من الضرورات الشعرية وهو مبدأ ثابت لا يحتاج فيه الى استفتاء لانه لا يفتى ومالك فى المدينة . والمدينة فى المقام الدى نحن فيه هى ديوان الشعر العربى . ومالك هو عامة الشعراء الذين أقروا هذا المبدأ وتمسكوا به وهم كثيرون لا يدخل عددهم تحت الحصر . وإذن ما شأننا وشأن القراء فى استفتائهم فى هذا الموضوع ؟

ومن ذلك قول الشاعر :

يقول العدا ـ لا بارك الله فى العدا ـ قد اقصر عن ليلى ورثت حبائله (7)

وتقرأ (قَدَ قْصَرَ) بفتح الدال وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن .

ومنه أيضا قول الشاعر :

فقالت : وما همت برجع جوابنا   بل انت أبيت الدهر إلا تضرعا

فقلت لها : ما كنت أول ذى هوى   تحمل حملا فادحا فتوجعا (8)

---

(7) ديوان الحماسة (الجزء الثانى) صفحة 120 .

(8) ديوان الحماسة لأبى تمام الجزء الثانى ، صفحة 127 .

وتقرأ (بلنت) بتحريك اللام بالفتح وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن. وقول الشاعر :

تبعت الهوى يا طيب حتى كأنني   من اجلك مضروس الجرير قؤود(9)

وتقرأ (منجلك) بتحريك النون بالفتح وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن . ومنه قول جميل :

اذا فكرت قالت : قد أدركت حبه   وما ضرني بخلي فكيف أجود ؟

وتقرأ (قددركت) بتحريك الدال وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن . وكقول أرطاة بن سمية المري :

هل انت ابن ليلى إن نظرتك رائح   مع الركب أو غاد غداة غد معي؟ (10)

وتقرأ (هلنت) بتحريك اللام وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن . وكقول الشاعر :

من اجل أبى بكر جلت عن بلادها   أمية والايام ذات تصارف (11)

وتقرأ (منجل) بتحريك النون بالفتح وادغام الهمزة فيها ليستقيم الوزن. وكقول المجنون :

أأقطع حبل الوصل فالموت دونه   أم اشرب رنقا منكم ليس يشرب
أم اهرب حتى لا أرى لى مجاورا   أم اصنع ماذا ؟ أم أبوح فاغلب (12)

وتقرأ (أمشرب) و (أمهرب) و (أمصنع) ليستقيم الوزن و (أم أبوح) بالهمزة القطعية اذ يستقيم الوزن لذلك بلا تخفيف .

ذلك وغيره كثير كثير مبثوث فى بطون الدواوين وهو يجرى كل مجرى (لون) فى (لو أن) كما فى قول أبى الطيب المتنبى :

ولو ان الحياة تبقى لحي   لعددنا أضلنا الشجعانا

---

(9) ديوان الحماسة لأبى تمام ، الجزء الثانى ، صفحة 164 .
(10) ديوان الحماسة لأبى تمام ، الجزء الثانى ، صفحة 370 .
(11) كتاب الاغانى ، أخبار أبى قطيفة .
(12) كتاب الاغانى لأبى الفرج ، أخبار مجنون ليلى .

هذا ولعل خير شاهد يدلى هنا هو قول النميرى :

أنـا ابن الـرابعين من ال عمـرو وفرسان المنـابر من جنـاب (I3)

وتقرأ (منال عمرو) بالضبط كالذى فى قول النابغة .

فاذا كان الامر كذلك فاننا نكون ازاء حقيقة ثابتة فى الشعر العربى راسخة رسوخ الجبال لا يصلح مثلها أن يكون موضع استفتاء . فاذا كان الامركذلك وكان بيت النابغة أمثل الشواهد عند العروضيين على الحـزم ، فلن يكـون الحزم اذن الا وهما عشش فى عقولهم دهورا خصوصا اذا تذكرنـا أن عـدد الشواهد كلها لا يبلغ عدد الاصابع وأنها لم تستـق فى مجملهـا من اصفى الموارد كالمعلقات أو المفضليات أو الهاشميات أو النقائض أو الخمريـات أو الزهديات أو السيفيات أو الروميات أو ما أشبه ذلك فلا مرد لها الا الى تهاون المصنفين والنساخ وقلة انتباههم كالذى فى قول الخنساء :

قـذى بعينـك أم بالعيـن عـوار أم ذرفت اذ خلت من أهلها الدار ؟

الذى قد يثبتون همزة الاستفهام فى أوله (أقذى) ولا يفعل ذلك الا غـريب عن الشعر أجنبى عنه اذ تفوته ثلاثة أشياء فى منتهى البساطة :

ــ أولها : أنه يجوز نحويا حذف همزة الاستفهام لوجود قرينة تدل عليها وهى (أم) .

ــ والثانى : أن الوزن يختل بزيادة الهمزة .

ــ والثالث : أنه لو كان المعنى يختل بحذف الهمـزة لالتمسنـا فى ذلك العذر من مخالفة الوزن . وأما والمعنى واللفظ يستقيمان كلاهما بذكر الهمزة أو حذفها فلا تكون مخالفة الوزن والاخلال به الا عبثا لا يقـدم عليه شاعـر متشبع بأصول فنه . مع أننا لم نسمع قط أن إخلالا أتى فى الوزن لضرورة اللغة أو لضرورة النحو أو لضرورة الصرف . وما أكثر ما سمعنا ورأينا أن إخلالا أتى فى اللغة والنحو والصرف لضرورة الـوزن . وذلـك كتخفيـف الهمزة وصرف ما لا ينصرف وما الى ذلك . ولم يكن كل ذلك الا حفاظا على الكميات الزمنية للحركة الايقاعية . فليعتبر بـذلك الدكتـور وليتعظ بـه ليعلم دور الكمية الزمنية فى ايقاع الشعر العربى . لانه لولا وجود فاعلية كمية زمنية فيه لما دعت الضرورة الىمخالفة الاصل فى صرف ما لا ينصرف ومد المقصور وقصر الممدود وتخفيف الهمزة الذى يتصل بموضوعنا مباشرة

(I3) ديوان الحماسة ، الجزء الثانى ، صفحة 288 .

وغير ذلك كثير كثير . وأما قوله : « إن الاذن العربية الحساسة قد تشربت الخزم » (14) فما بالها لم تتشربه الا فى هذه الحالات المشبوهة التى تعد على الاصابع ، ولم تتشربه فى شعر أبى الطيب أو أبى فراس أو البحترى أو أبى تمام أو ابن الرومى أو أبى نواس أو بشار أو أبى العتاهية ولا فى شعر الفرزدق أو جرير أو الأخطل ولا حتى فى المعلقات الجاهلية .

ولعمرى فانى لا أجد ما أعلق به على نظرية ترسى قواعدها على ظواهر شاذة لا أثر لمثلها فى شعر هؤلاء الفحول . لانه اذا صح أن الوجه فى البحث عن ظواهر إيقاع الشعر العربى هو الرجوع الى المصادر فانى لا أعلم بوجود مصادر هى أحق بالرجوع اليها من شعر هؤلاء . ولقد أتى نقص النظريات الحديثة ، سواء كان أصحابها عربا أو مستشرقين ، إنما أتى من قبل أن أصحابها يرجعون الى جميع المصادر النظرية القديمة والحديثة وينسون المصدر الذى لا مصدر سواه وهو شعر هؤلاء الفحول . ولو فعلوا واغترفوا من البحر مباشرة لعدموا فيه ظاهرة الخزم ولرفضوا أن يخوضوا فيها خوض القدماء فتسنى لهم أن يشتغلوا بأمور قد تكون أجدى منها عليهم بكثير .

فليس الخزم إذن بظاهرة إيقاعية فى الشعر العربى ؛ وما هو الا قضية عروضية مفتعلة . وإنى لأتعجب من الباحثين فى عصرنا كيف يقرونه ويقولون بوجوده ، ويزداد تعجبى كلما تذكرت أن كمال أبو ديب يبطل دور الكم فى مئات الألوف من الدورات الايقاعية المتساوية كلها مع بعضها البعض فى الكامل بسبب دورة ملعونة واحدة . لان الدورة الايقاعية التى فى صدر مطلع دالية النابغة (أمن آل مية) هى واحدة من ست دورات يشتمل عليها البيت . وذلك البيت هو واحد من تسعة وأربعين بيتا تشتمل على مائتين وأربع وتسعين دورة ايقاعية كلها متساوية مع بعضها البعض فى القيمة الزمنية بما فيها الدورة المعنية عندما تقرأ كما يريد ديوان الشعر العربى أن تقرأ (أمنال ميــ) ولا تشذ عنها الا دورة واحدة وهى تلك التى هى موضوع بحثنا عندما تقرأ كما يريد العروضيون (أمن آل ميــ) .

فهل يقدم كمال أبو ديب على إبطال دور الكم فى إيقاع مائتين وثلاث وتسعين دورة بسبب دورة ؟ وذلك هو المنطق الذى لا نفهمه .

ألا وإنه اذا كان ولا بد من إبطال شىء فان الاولى والأنسب أن نبطل نظريته التى تعتمد مثل هذا المنطق الغريب .

محمد العياشي

---

(14) فى البنية الايقاعية للشعر العربى الدكتور كمال أبو ديب ، ص 251 .

قصيـدة نثـر :

الطِّـين

يوسف عبيد

الولد الذي لعب بالطين
وجعل منها بيوتا
وخيولا
وإبلا

الولد الذي جلس
في الشمس
ونام في المغارات
ولُدغ بالعقرب مرّات
وعدّ نجوم السماوات
ولدٌ لم يكبر
برغم ربطة العنق
برغم الشارب الغليظ
برغم خاتم البنصر
برغم الشيبة الأولى
الولد الذي ظلّ ولدًا
ما زال يجلس في الصمت
ويقف في القلق
يراقب جدرانا مُشقّقة
وحوافر مفلّلة
وفوارس مُثخنة
و هوادج بلا زغردة
الولد الذي لعب بالطين
حزين حزين
جفّت بسمته
كالطيـن !

مدخل لإشكالية الحداثة في الشعر

بقلم : محمد أحمد القابسي

لابد ان نتفق فى البدء على ان القصيدة العربية التى تكتب فى تونس فى السنوات الاخيرة هى التى اصبحت تقرع ابواب الحداثة بعنف بحيث بات ممكنا الآن وبعد التراكمية التىعرفها الشعر فىتونس زمنا طويلا ان نقول : إن تجارب السنوات الاخيرة تستوجب الوقوف عندها كتجارب بدأت تكتسب خصوصية نعل شعرنا سيعرف معها المنعرج .

وحرى بنا التوقف فى البدء عند مصطلح اساسى لا ابالغ فى شىء حيث اقول انه الهاجس الكبير الذى نشترك فيه جميعا والذى نقف عليه لنؤسس الفعل الشعرى المغاير .

انها كلمة الحداثة .. وقبل الحداثة اننى اعنى بالاشكالية هذا المخاض الخصب والمشروع الذى تحياه القصيدة الحديثة فى تونس والذى مرده الشغف بالتحول وركوب مهرة الآتى والرفض للقصيدة المطلق،والنوذج الخالد،واللغة المقياس.. وقد يصل بنا كل ذلك فى أحيان كثيرة الى التناقض .. ولم لا يكون التناقض ان كنا فعلا نريدها قصيدة حديثة مسكونة بالاسئلة ؟

فى معنى الحداثة :

اما مصطلح الحداثة فهو مصطلح وافد علينا من الغرب كاغلب الاتجاهات الفنية التى جاءت من هناك ومنها الرمزية والدادئية والسريالية وغيرها وقد لا اتجاوز الحد لو قلت : ان مصطلح الحداثة هو ترجمة منقوصة لكلمة (Modernisme) واتفق هنا مع بول شاوول حين يرى ان الترجمة الصحيحة

كان يمكن أن تكون حداثية على نحو ما ترجمت كلمة (Liberalisme) باللبيرالية وكلمة (Surrialisme) بالسريالية.

ومهما يكن من امر فان الترجمة كمصطلح لا تعنينا كثيرا بقدر ما تعنينا دلالتها فالحداثة هي حضور الهم الحديث هم التجاوز الشكلاني او التجريبي او الاختباري اللغوى على هم تقديم نتيجة كيانية ذلك ان القصيدة تنتمي في الاصل الى تجربة ولا تنتمي الى شرح او تحليل انها كما يقول ناقد عربي كبير: ينبغي ان تكون لا ان تعني. انها مغامرة بدائية تفيض بالحدس والدلالة والكشف عن ادراك خاص للعالم ادراكا يهدم نظام التصورات المألوفة ليعيد توزيعها من جديد فهي تنتزع الاشياء من كيانها المألوف وتعمل على بنائها من جديد في سياق آخر مدهش وغير متوقع قد يدهش المتلقي ويثيره من خلال تفجير اقصى طاقة ايحائية وانفعالية لديه بحيث يدرك معنى اعادة ترتيب التجربة الانسانية واعادة خلقها وتفسيرها من جديد..لتخطف الصورة الروح كما يقول بودلير..ونعود للحداثة لنقول ايضا: إن الحداثة لا تعني اطلاقا ـ وهذا بديهي ـ **الظرفية الزمنية بقدر ما تعني حضور التوهج في الفعل الشعري ..**

ان هذا الاستهلال يسلمنا للحديث عن اشكالات الحداثة في القصيدة العربية في تونس والواقع ان اغلب الاسئلة التي يطرحها الشعر التونسي الحديث قد طرحت منذ بداية القرن ثم مع الاربعينات مع الرواد ومع شعراء الستينات بعد ذلك وها هي تعود اليوم لتمتلك الساحة الشعرية عندنا ان اهم ما يطرح اليوم على ساحتنا الشعرية يمكن تحديده في **الظاهرة الايقاعية وظاهرة الغموض والظاهرة اللغوية .**

1) الظاهـرة الايقاعيـة :

ان من اهم الاشكالات التي تطرح اليوم مسالة ايقاعية الكتابة الشعرية وما يثار في كل المحافل الشعرية والنقدية حول الوزن والقافية في الشعر لنقول العيب كل العيب اعتبار الوزن والقافية ميزة خاصة نوعية لا تقوم اللغة الشعرية العربية الا بها ولا تقوم الا بدءا منها واستنادا اليها انه زعم واه جدا وباطل جدا.

ثم ان الوزن والقافية عمل تنظيري لاحق بالشعر تاريخيا وهو بالتالي محدود لا يستنفد امكانات الايقاع وامكانيات التشكيل الموسيقي في اللغة العربية وانما يمثل ما استخدم واستقر .

ولذلك اننا اليوم نقول : إن الايقاع النسبي الذى عاشت عليه القصيدة العربية أربعة عشر قرنا قابل للتغير ويمكن ان يتعدل أو تضاف اليه استخدامات اخرى وربما يزول وذلك حسب مقتضيات التطور .. وهذا يوصلنا الى الحتمية التالية ان اعتبار الوزن الخليلي كامكانية واحدة للايقاع الابداعي الشعرى تقليص للامكانيات الايقاعية الهائلة للغة العربية وضرب من ضروب معوقات هذه الامكانات . والسؤال اليوم هو الى اى مدى ما زال ما يسمى بنظام التفعيلة او الشعر الحر اعتباطيا قادرا على استيعاب التجارب الشعرية المعاصرة ؟ فهل آل مصيره اليوم الى ما آل اليه مصير القصيدة العمودية الخليلية منذ اكثر من ثلاثين عاما ؟ هل استنفد ايقاعاته بحيث صار اعتماده ضربا من التكرار والاجترار ..؟

لابد اذن من مواجهة المشكلة وطرحها طرحا موضوعيا ، خاصة اذا قلنا ولسنا وحدنا فى هذا والقول هنا مشترك مع اكثر من شاعر وناقد ، اننا منذ اكثر من عشر سنوات قلما وجدنا فى مجمل انتاج الشعر الحر الذى ينشر فى الدواوين والمجلات والصحف اى تنويع او تقدم او جديد .. ويمكننا بكل سهولة ان نقتطع مقاطع لشعراء مختلفين ومن مراحل شعرية مختلفة ونجرى عليها عملية تركيبية لنتبين انه لا فوارق بين مجمل ايقاعات هذه المقاطع او حركاتها او نبراتها فكان كل الشعراء الذين يعتمدون الشعر الحر اليوم باتوا يكتبون قصيدة واحدة ولا نسال بعدها عن الخصوصية والتميز (انظر قصائد درويش الاخيرة وقصائد ممدوح عدوان) ثم واذا اعتبرنا وتمثلا برأى سوزان برنار ان التجربة هى التى تجد شكلها كالنهر الذى يحفر مجراه وان كل قصيدة تجربة بحالها فلا بد ان نسلم بان كل قصيدة تنسج ثوبها الخصوصي وتاتى وفق حالتها التى هى التجربة التى هى الشعر تاليا لقد وجدت الحل وهو ان لا أفكر بالشعر يجب ان لا اضع الهاجس الشعرى فى حالة يقظة دائمة الحل هو ان ارمى بنفسى في الحياة، الشعر موجود فى الحياة والقصيدة هى محاولة اقتناص ما فى الحياة من شعر ، الشعر ليس فى القصيدة ، الشعر موجود فى الحياة هكذا قال درويش ومن اقر بهذا يعنى اساسا اقر بتجربة ذاتية لكل قصيدة ..

اننا نريد الشعر ولا نكتب انطباعاتنا الشعرية . ثم ، واذا كان الشعر هو الانتماء الاقصى للحرية وللزمن وللاستمرارية وللمطلق ، اليس من حق الشاعر ان يرفض قانونا ابديا ، يقال : انه صالح لكل زمان ومكان ولكل الحالات والتجارب ولكل الآفاق والمدن !؟

ان تحرير الشكل الشعري من كل شرط سابق او قالب مسبق يفترض دائما شكلا معينا لكل قصيدة وان الشكل لا يعنى الوزن والقافية او انعدامهما بالضرورة ان الشكل الحديث اكثر من وزن وقافية هو حركة القصيدة وطريقة تكونها وعلاقة اجزائها ببعضها البعض والاصوات الداخلية فيها .. ثم ان الايقاع لا يعنى الوزن التقليدى (الخليلى تحديدا) وهو ليس ضروريا ان يكون من خصائص القصيدة الحديثة لان القصيدة الحديثة ليست للطرب هى قصيدة تهمس من وراء الباب .

2) في المعنى والغموض :

ان هذا التوغل فيما نعتقده بداية لممارسة شعرية جديدة تواجه اليوم فى تونس وفى غيرها صعوبات مرحلية اساسية .. فالذين يرومون السهل والعدو فى ارض معبدة يصفون تجارب الشباب علاوة على الفوضى والمروق الايقاعى بالاغراق فى الغموض لذلك طالما الصقوا هذه الصفة على شكل تهمة توجه الى التجارب الحديثة فى الشعر العربى وتجاوزا للسؤال التقليدى الذى طرح على ابى تمام لماذا تقول ما لا يفهم .. ؟ والذى جوابه لماذا لا تفهم ما اقول ؟ وتجاوزا لأبعاد هذه المسألة فى تاريخية الشعر العربى القديم نسأل هذا السؤال : هل ترانا نبحث عما اراد ان يقول شاعر فرنسى كبير حين كتب يوما : الخلود هو البحث عن ساعة يد قبيل منتصف الليل عند الارض المواجهة للماء ؟ ام ترانا نسأل ماذا اراد ان يقول امرو القيس منذ قرون عديدة عندما كتب :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب اغوال ؟

ان المسالة اذن مسالة الكون المرئى بكامله والذى هو مخزن صور وعلامات يمنحها الخيال مكانة وقيمة نسبيتين ، ان الايحاء بالشىء واثارته تدفع بالقارىء الى رغبة أصيلة فى التخمين وفى التخيل وكيفية الايحاء بالشىء هى المغامرة الحميمة للشاعر فى منطقة تسمى الحدس او الغموض اعتباطا . ان الغموض هو العاطفة المبهمة التى تدفق منها القصيدة انها وكما اسميها غزالة الملح التى تقف عند بابى بعد منتصف الليل .. ان هذا الخيال المبدع الذى تخطف الصورة فيه الروح هو الذى يفتح القصيدة على عالم الاسطورة الكونية تفجيرا للمدهش من خلال الرمز والتداعى والتراسل انها وكما قال أحد النقاد الجادين : شبكة التوقعات الخفية التى تتحول شيئا فشيئا الى واقع مضىء يتدفق فى عفوية مدهشة .. وانها الصورة ومهما يكن غموضها فهى كشافة ومضيئة ..

ثم وكيف لا تطرح قضية الغموض فى حاضر معقد وفى زمن تصاعدت فيه الصلة بين الشعرية والمعرفية .. ؟ ان الشعر اليوم هو المعرفية وهو صنو حميم للفلسفة ومن هنا فالشعر لا يمكن ان يكون له معنى الا بالنسبة لاولئك الذين **استوعبوا التقاليد التى تنتظم الشعر من حيث هو نظام ومؤسسة .**

ان القصيدة الواحدة وكما تقول ريتا عوض تستمد معناها من النظام الشعرى العام كما تستمد الجملة الواحدة معناها من النظام اللغوى ..

فالنظرية النقدية التى جاء بها البنيويون وينادى بها الناقد الكندى الكبير نورتروب فراى وكان قد تنبه لها احد الآباء الشرعيين لشعر الرواد العرب واقصد س. اليوت احدثت قفزة أساسية فى النقد الحديث منخلال التأكيد على ان الشعر نظام من القصائد المتماسكة والمترابطة الامر الذى يسمح بتحويل النقد الادبى من ثرثرة وصفية فارغة حول الادب والشعر بالذات الى دراسة منهجية للادب والشعر .

ان الغموض النسبى الذى يبدو من خلال بعض التجارب الشعرية الحديثة **لا يعنى اطلاقا** مؤشرا للانفصال عن حياة الواقع وعن الذاكرة التراثية انما هو قضية تعبيرية مرتبطة بالتشكيل اللغوى والشكلى الذى جاءت به القصيدة الحديثة وهو نتيجة حتمية وطبيعية للعزلة والاغتراب اللذان يعيش فيهما المبدع فى حضارة نمطية ترفع شعار العلم وتهدم هاجس الكلمة ..

والغموض اساسا افراز طبيعى للتناقض الرهيب الذى يهز المجتمعات العربية..تناقض القول مع الفعل والمعلن مع الخافى والذى نريده نحن مع الذى يراد لنا ، انه رد فعل مباشر لهذه الازدواجية التى نحياها ولهذا الانشطار الذى افقد حياتنا معناها الحر وزج بنا فى كون الهوامش التى لا يحق لها ان تفكر او تقول او تحلم وتؤسس وبالتالى ان تحيا حرة ومسؤولة .

3) **اللغــــة :**

واذا كان الغموض يرتبط عادة بعلاقة الشاعر الظاهرة باللغة التى يستعملها فان اللغة فى الشعر تظل المادة والمتشكل ان القصيدة الجديدة هى اولا وقبل كل شىء محاولة فى ادراك اللغة ادراكا مباشرا خارج سجون التقسيمات والقوالب والمذهبيات وحتى الكنائس والمساجد وكل ماينضوى تحتالقداسة.ان موقفنا من اللغة التى نحفر جسدها يرفض النموذج قديما كان او جديدا ويلبس فتوة التجربة الواحدة التى لا تتكرر والتى تخرج اللغة من منزلتها الوضعية المعجمية المحدودة الى فضاء القدرة الدلالية التى تخاطب الكون الانسانى مرة

واحدة .. وبأعلى درجة فى الكشف ومن اقصى منطقة للتغلغل ولعل من اشكالية اللغة فى شعرنا الحديث ان علاقة عدد كبير من الشعراء ليست علاقة التحام وانصهار كلي بقدرما هى علاقة تسطيح عمادها النقل عن الغير وغياب الارضية المعرفية العامة والانسياق فى استعمال الرمز التاريخي والاسطوري الجاهز بغرض الابهار والسعى الى حداثة واهمة وبالتالى الذوبان فى النمطية وتشييع الابـداع .

ان القصيدة فى نهاية الامر هى خلق ثلاثى يتفاعل فيه الشاعر والكون واللغة ويظل الشاعر قطب الثالوث .

ان هذا المدخل العام الذى قصدت به تثبيت بعض المعطيات الاساسية فى الممارسة الشعرية ومن زاوية ذاتية يوصلنا الى الملاحظات الاساسية التالية :

أ) ان الممارسة الشعرية الحديثة فى تونس بدأت تاريخها بعد سنة 1970 وهى متواصلة الى اليوم وهذه الممارسة حركة افراد وليست حركة جماعية رغم ما قيل ويقال عن تكتلات وجماعات وبشىء من التفخيم والتبجح : مدارس.

ب) ان هذه الممارسة تتميز بغيات كلي للاسس النظرية الواضحة وغياب حركة نقدية موازية او قل حركة متابعة ورصد تسجيلا وتحليلا وتوقعا .

ج) ان هذه الممارسة ضعيفة الكيف وذات تقوقع على امتدادها الزمانى فلم تتسلسل تسلسلا ملموسا فى حركة النشر وايصال الانتاج الشعرى الى الناقد والقارىء . وقد افرز هذا الوضع غيابا للمتن الشعرى الحديث فى تونس كما أفرز فوضى وتهميشا لما اراد به البعض شعرا وهو فى الواقع ممارسة انطباعية سمجة لكتابة بعيدة عن الشعر . وبشىء من التحديد يمكن طرح الاسئلة التاليـة :

أ) متى ستفرز الممارسة الشعرية فى تونس قصيدة عربية حديثة ؟

ب) متى سيقف شعراؤنا على ارضية معرفية تراثا ومعاصرة ليتحرروا من التراكمية المجانية واللغوية العابثة والشرح والنثرية .

ج) متى نوجد النص الناقد التحليلي الرافض للوصفية والتصنيفية والجزم الاعتباطى ومتى سيفكر بعض المنتمين الى الشعر فى مراجعة ما يكتبون والتزام الضبط والصعب واحترام العصر والشعر .. ؟

كل هذه الاسئلة تجعلنى اجزم انهناك اشكالية واضحة علىصعيد الممارسة الشعرية فى تونس .

محمد أحمـد القابسي

مَصْرع الضّوء وزمَن الظّلال

بقلم: عبد العزيز بن عرفه

« عبر فى العديد من المرات من النور الى الظل
وعرف ما لم يعرف ولكنه عاد »

رولان بارت

الصـراع هـاجع فى زمـن المساحـة
طـاغ الضـوء على فسحـة المساحـة
يرتعش رحيل الحلم
فــى الـقـلـــم
فيــزحــف زمــن الـظـــلال
عــلى مـســـاحــة الـضــوء
وتــهـــب
الـريـح الحـالمـة
فتهـرم مسـاحـة الهـرم
فى الصفر يبدأ السفـر
وفى وحـدة الـواحـد
يـصـمـد الـهـرم

تسافر الرعشة فى الصفر
فتنمحي حدود الواحد

ويتنهد رعب القلم ، حينا .
تزحف الريح فتكنس ذاكرة الضوء
يغطى المساحة فى روعته .
عندها.هل تهمسين يا ظلال أسئلتك؟
وتبسطين يا أسئلة ظلالك .
هل يتخلى الضوء عن سلطته ؟

هل يغيب حجم الهرم
فى حيرة الظلال
ورحلة
السؤال ؟

عبد العزيز بن عرفة

صلاة سمراء

قصة : حياة الرايس

دهـــر :

وأنت الى هذه الصخرة موثوقة بآخر الشارع حيث تعودت انتظاره ... فى ليلة مثخنة بالظلمات ترفض أن تنتهى وترفضين انتهاءك فيها .

تشدين الى جسدك فستانا لم تفلح فى اقتلاعه منك ولكنها كانت تثير زوبعة من الشعر حول وجهك الذاهل تهدها حبات المطر تعلق ببعض الحصلات فتلبدها على وجهك الذاهل لتنزلق بعد ذلك سواقى حول عنقك وباقى الجسد ... وتشتد حاجتك للدفء ويشتد المطر ...

مطـــر :

فى النفس وجع .

« متعبة أنا ... أسافر فيك ... أحاول ان أرسم فى عينيك خارطة الـوطن » .

تشرذمت الذات .

حلـــم :

عنيد ... عنيد ... عنيد ...

ما ينفك يراودك عن نفسك .

« الحلم لص ... يختلسنى اليك » .

الاغراء بالزمن الآتى !...

« بلى الحلم جسور تصلنى بأناس أبحث عنهم ولا أعرفهم يطلع الصبـاح ! الجسور تتجمع غريبة حولى » .

اليوم يزحف ! يزداد ركضك حول عربات الموت .

تستباح المدينة ! وأنت المحراث الذى يغور فيها طولا وعمقا .

قـفـــز :

أسوارها أشلاء خارجها ... بما فيها .

تغوصين عميقا فى جوفها تدفنين غربة ... غربة ... غربة ... ذنبا ، جثة هامدة تركض فى كل اتجاه ...

« تتسابق المسافات فى داخلى » .

لا تستطيعين التماسك ، ولا اللحاق بجنونك ، تفرسين عينا باهتـة فى هذا وذاك . الوجوه محنطة .

« يروعنى الصنم ! أثب على التماثيـل اضاربهـا ببعضها البعض أطـاير شظاياها لهبا فى كامل أرجائى ـ المدينة » .

تتطاير تحلق التماثيل فى فضاءات غاب بونها . وتتهاوى عليك الاصنام رادمة أشلاء أسوارك .

عـمـــار :

« نمت عمرا أفقت بعده » .

المدينة ... وعهدك بها ... مقبرة كبيرة ! غدقت آفاق رائحة حضارة عفنة تتسيب من جلود نساء مصبوغة مشوهة ورجال أدمنوا الجثث ختم على حواسهم شم رائحة القرنفل .

سحبت جسدك من تحت الانقاض تحاملت حتى وصلت الصخرة وتقنطرت عليها من جديد حيث تعودت انتظاره فى ليلة مثخنة بالنجوم ترفض أن تنتهى.

« وأرفض أن انتهيها !

سأستلقي للشجر يفتح خلايا جسدي ، يبدد الحزن المعسكر فيها لتكنها رائحة الزيزفون » .

« لن أهب نفسي » .

للشجر الاخضر ... بعد اليوم أضاجع الشجر ! حتى الموت حتى الحياة ...

عيناك مسمرتان بآخر الشارع ...

المطر يحفر سواقي بين حنايا الاضلع ، يسري مع شرايينك ، يغسل أدارانا تنحدر وديانا ، يهمي جميلا جسد انقلب الى واحة تنضح بمائها ، ويهمي ناقرا أوراق الشجر : كونا يعزف نغما جديدا ، يسكت صوت نحيب صامت داخلي .

« عاشرني طويلا » .

حيـــاة :

حياة تتحفر ما بين الاضلع . واثبة من الاعماق . تنبثق شعاعا من العينين يخترق الكون رغبة في الابتلاع ... في الذوبان ... في ... بدا الكون وجها نضرا كالشمع ، المطر كوكبة كبيـرة تتلألأ جوهـرة .. انتشر زهـر اللوز والليمون ... عجت الارجاء برائحته ...

« تخللتني رائحته ، أردتني ثملى ... تلاشيت حتى اشتهيت الموت اشتهيت الموت فيك » .

– « أيها الطفل الذي ما زال يلهو بلعبه ... يتسلى بتقليب صفحات منعته عن قراءة سطور لهيب قصة صمت في عيني امرأة ... »

« أيها الطفل الفارع الطول تغريني سمرتك ... »

تجتاحك قامته سنديانة تعلو في داخلك تضم أشلاء أسوارك ... تتعاظم... تفوح ... تنمو ... يتناثر أريجها على شفتك :

« أمـوتك ! » .

في داخلي يكبر حب .

ينمو الحلم .. بين يدى .. نجمة على كفى . أتيتك ألم تلاحظ ؟

انتظريه صباحا يشرق على جبينك .. ليلا ... ليلا .

الحلم ... الحلم ...

« وجهك يلاحقنى » .

يتراءى لك فى كل شىء .. فى المشط .. فى الكحل .. فى القلم الذى به تنزفين .. وجهه يغزو خارطة الوطن .

« أدمنك ... أدمنتك » .

يستحيل العيش خارج حدود الوطن ...

« صدرك مساحتي الوحيدة التى أستطيع أن أمارس فوقها طفولتى وجنونى ... » .

زلـــزال :

تشمين رائحة الزلزال ...

« يدي تمتد .. تمتد .. الى آخر .. آخر .. الصحراء وليت ظهرك .. تواريت ابتسامة زهو تراقص شفتيك » .

« أجهض الحلم فى رحمى » .

دمعة كبيرة فى وجه الصحراء ...

« أيها الطفل ! إننى امرأة ! قدرك والولادة ولو فى زمن الموت » .

حياة الرايس

قُبلات .. ومَعْزُوفَة

إبداع : جمال الدين حشاد

① قبلات صفراء على شفاه ظماى :

من دائرة التوهج
نزعوا الريش الخرافى
وسلبوا الارض
والاسم
واللـون
وبقيـت
أنا كحارس السجن
أمام أنياب الحزن
اغط فى نوم عميق ...

* * *

لو تذكرين
حبيبتى الاسيره
كم رجلا
عانقه الضوء
للمرة الاخيره ...

* * *

اذا ...
سالوك يوما
عن حبنا
قولى لهم :
حبنا الربيعى
يمنح الصحو
مخاض الفرح الجرىء ...
يحضن وجهى
ووجوه الفقراء
قولى لهم :
حبنـا
فوق ساعات الجدال
فوق سلاطين القتال
فوق مسافات الزمن ...
قولى لهم
ببسـاطه
القـروى :
حبنا خمر الوطن ...

* * *

أنهــار ...
وأنا ما بين حزن
ودوار ...

* * *

جئتـك ...
قاتلتى السمراء ...
وفوق رأسى تختفى
شحارير الصحارى
تحضن شمس الانفراج
جئتك قرطاج
وعلى جبينى
راية صحو وهاج ...

② معزوفة الوطن الخائف :

ماذا بعد ؟...
وجه دموى ...
ينزف حزنا ...
وطن يرتجف ...
فى لحظة يرعشها الخوف ...
ماذا بعد ؟...
مملكة تحكمها هند
وشجر يرتعش
فى ذاكرة
رجل حطمه الوجد ...
ماذا بعد ؟...
قصب يميل فى الفجر
على هبوب الريح
أم ريح
تهب فى انتفاضة الارواح
تحمل براءتى ...
فى دمها ...
ومن دمي
تنمو من جديد
فى دائرة الافراح ..

* * *

أيتها الحمائم العاشقه
لم يبق فى حقلي سوى
شجر الرفض
وعناقيد النهار ...

* * *

ولأن الحزن
يواكب الرؤى
أحتكم للنوارس العائدة ...
وعــلى
شفة المدينة العذراء
أكتب شعرى
بأدمع اليتامى ...
وفى ارتعاشة
الاســرار ...
وجهى موجة غافيه
وعليها العندليب يغرق
وجهى لك ...
ولكل الفقراء ...
يطلع مع الشعب البدائى
يخضر فجرا
ويتمزق ...
يمتد عاشقا
على نخب لوائح الهزيمه
نحو مجاهل الابراج
الى ان
ينشر فى دمي الرمادى
سنابل الرفض الوهاج ...

جمال الدين حشاد

من المسألة اليهودية إلى المسألة الاسرائيلية

بقلم : هشام القروي

(*) – 2 –

« لندن : نوفمبر 1917 .

عزيزي اللورد روتشيلد :

يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي الذي يعبر عن عطف الحكومة على أماني الصهيونية . وقد رفع هذا التصريح الى الوزارة وأقرته :

ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وستبذل جهدها لتسهيل هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين أو الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى .

هذا واني أكون شاكرا لكم اذا تفضلتم بنقل هذا التصريح الى اتحاد الجمعيات الصهيونية .

المخلص : آرثر جيمس بلفور» .

الا أن هذا الوعد لم يكن كافيا بحد ذاته . ولم تكن بريطانيا قادرة على تنفيذ ما جاء فيه لو لم يتم انتدابها على فلسطين سنة 1922 من قبل عصبة الامم التي وافقت بدورها على صك الانتداب الذي اعترف بوعد بلفور .

لا شك ان وعد بلفور الذي ثبت في صك الانتداب الذي اقرته «عصبة الامم» كان حجر الاساس الذي بنيت عليه وحوله المرتكزات والهياكل التي قامت عليها دولة اسرائيل . بيد أن صك الانتداب نفسه نص على أنه لن تمس حقوق وأوضاع الفئات الاخرى من السكان . لذا فان معاينة السياسات الانكليزية خلال فترة الانتداب تبين بوضوح لا مثيل له أن وعد بلفور شأن أي قرار سياسي لدولة حديثة كان يشكل لحظة

(*) انظر العدد 9 – جوان 1984 من مجلة « الفكر » .

فحسب فى مسار السياسة الاستعمارية الانكليزية ، طويل ، متعرج ، متذبذب ، متناقض ، تلعب به موازين القوى والضغوط المتبادلة • والواقع أن صك الانتداب بالذات ما كان ممكنا كما قال حاييم وايزمن أن يأخذ هذا المنحى المحابى للطرف الصهيونى ويلعب هذا الدور الكبير فى تحديد موقف الدول الكبرى الايجابى من المطامع الصهيونية لولا اتفاق فيصل ـ وايزمن ، أى لولا هذا التنازل العربى غير المبرر •

من هنا ، ومع بروز وتنامى المعارضة العربية بادرت انكلترا الى اصدار كتاب أبيض فى العام 1922 يفسر وعد بلفور على نحو أقل محاباة بكثير لليهود ، معلنا أن المقصود من وعد بلفور ليس تحويل فلسطين الى وطن قومى لليهود ، بل فقط اقامة «وطن قومى يهودى فى فلسطين فارضا قيودا على الهجرة اليهودية تتناسب مع «قابلية الاستيعاب الاقتصادية للبلد» • كما وضع عددا من القواعد الاقل محاباة بخصوص التعامل مع «الوكالة اليهودية» • هنا ، فى هذا الكتاب الابيض أرادت بريطانيا أن تعطى نفسها دور الحكم بين العرب واليهود •

بعد ذلك ، وبوجه عام مضت فترة هدوء فى فلسطين (1924 ـ 1929) نجمت بالدرجة الاولى عن عدم فاعلية الحركة الصهيونية ، حيث توقف فى العام 1927 مثلا دفق الهجرة الى فلسطين وأصبح مغادرو فلسطين أكثر من القادمين اليها • فتوقف أو تلاشى النشاط السياسى الفلسطينى نظرا لانه بقى حتى ذلك الحين مجرد رد فعل وليس فعلا • وجاءت حادثة البراق أو حائط المبكى لتفجر تحركا فلسطينيا «ما قبل سياسى» أو «دون ـ سياسى» ـ كما قال فانشتوك ـ ضد اليهود . وكانت مناسبة اقتنصتها الحكومة الانكليزية فعينت «لجنة شو» لاستقصاء أسباب التوتر الذى ساد فلسطين • وقد انتهت اللجنة الى اقرار عدد من التوصيات ما لبثت أن أصدرتها الحكومة الانكليزية فى كتاب أبيض جديد فى العام 1930 اعتبره الييشوف محابيا للعرب وبخاصة فى ما يتعلق بالقيود التى وضعها على الهجرة اليهودية الى فلسطين •

هذا التحول البريطانى لم يلبث أن أثار احتجاجات صاخبة وضغوطا قوية سواء فى فلسطين أو فى انكلترا لدرجة أن حاييم وايزمن الحليف التاريخى لبريطانيا قدم استقالته من رئاسة المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية • اثر ذلك ، فى 13 فيفرى (شباط) 1931 ، أرسل «رمزى مكدونالد» رئيس الوزراء البريطانى رسالة الى وايزمن تلغى عمليا الكتاب الابيض المذكور ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك وقدمت للوكالة اليهودية تنازلات تتعلق بالهجرة ووفرت تسهيلات جديدة لعملية فصل الجماعتين اقتصاديا

عن بعضهما البعض.لذا سمى العرب رسالة مكدونالد هذه «الرسالة السوداء».
بيد أن مجيء النازية الى الحكم فى ألمانيا سنة 1933 أنقذ المشروع الصهيونى فى اقامة الدولة اليهودية اذ استؤنفت الهجرة من جديد الى فلسطين حتى بلغ مجموع اليهود سنة 1939 ، 28 بالمائة من مجمل السكان .

فى هذه الحقبة أيضا تابعت السياسة البريطانية الاستعمارية سيرها التناقض المتخبط المتذبذب بفعل جملة من الضغوط المتعارضة التى تؤثر فى ـ أو تتنازع ـ عملية صنع القرار الاستعمارى البريطانى . ولعبت جملة عوامل لصالح اعادة نظر بريطانيا بدت فى ذلك الحين جدية فى موقفها من النزاع القائم فى فلسطين . النضال الفلسطينى ـ العربى المسلح وغير المسلح فى فترة 1936 ـ 1939 وتوجهه مباشرة ضد الاستعمار الانكليزى . حاجة بريطانيا الى استعادة ثقة العرب فى وقت بدا واضحا ان العالم يقترب من حرب عالمية ثانية.الاختلافات داخل النخبة السياسية الانكليزية حول السياسة الواجب اتخاذها ازاء الصراع الفلسطينى ـ اليهودى وعلاقة ذلك بحماية قناة السويس والمحافظة على طريق الهند ... هذه العوامل كلها كانت تدفع ببريطانيا الى ايفاد لجنة تحقيق بعد لجنة تحقيق الى فلسطين بحثا عن أسباب الصعوبات والاضطرابات والتفتيش عن الحلول الممكنة . فى عام 1937 ، ولاول مرة يقترح تقرير « لجنة بيل » تقسيم فلسطين الى دولتين عربية واسرائيلية ودولة ثالثة تبقى تحت الحماية البريطانية وتضم القدس وشريطا يوصلها بالبحر . غير أن رفض العرب واليهود معا اقتراحات «لجنة بيل» دعا لجنة أخرى ـ «لجنة هيد» ـ للاستنتاج بعدم امكانية تطبيق مشروع بيل ـ فطوى .

الا أن بريطانيا ما لبثت وقد أقلقتها المشاعر العربية المعادية لها والمتعاطفة مع الالمان والاقتراب المتزايد لشبح الحرب أن حزمت أمرها فأصدرت فى ماى (أيار) 1939 كتابا أبيض جديدا أرادت به حسم المشكلة . وبموجبه تبقى فلسطين محكومة من قبل الانكليز وتناقش مع الاطراف المعنية مسألة اصدار دستور خلال خمس سنوات ثم تنال فلسطين استقلالها خلال عشر سنوات. وسمح لـ 75000 يهودى بالهجرة الى فلسطين فى السنوات الخمس التالية ، وبعد ذلك تتوقف الهجرة على موافقة الاغلبية العربية . بيع الاراضى لليهود حد فى بعض القطاعات ومنع فى أخرى . وفلسطين لن تصبح كما يقول هذا الكتاب الابيض : لا دولة عربية ولا دولة يهودية .

والواقع أن هذه الدولة ثنائية القومية التى أرادتها بريطانيا لن يشكل فيها الييشوف سوى حوالى الثلث الامر الذى أثاره الى أقصى حد . وما أن قاربت الحرب العالمية الثانية نهايتها حتى بدأت المنظمات الصهيونية اليمينية

مثل الارغون مدعومة بالرأى العام اليهودى فى فلسطين أعمال الارهاب والاغتيال والانتقام ضد الانكليز . وأخذت أعمال الارهاب هذه حجما أكبر بكثير عندما نزلت الهاغاناه الى الساحة عند انتهاء الحرب فى نهاية 1945 . وبالطبع بقى الفلسطينيون فى موقع المتفرج والمنتظر مع أن الكتاب الابيض موضوع الصراع كان لصالحهم اجمالا وخاصة فى ظل ميزان القوى المحلى الفلسطينى اليهودى (11) .

فى هذه الاثناء ، كان ثمة عوامل عديدة أخرى تدفع بريطانيا الى مراجعة سياستها فى فلسطين ، عوامل كانت هامة ولا شك ، ولكن تبقى الحرب اليهودية ضدها العامل الاكثر اهمية . فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، انطلقت موجة نزع استعمار واسعة ومتلاحقة فى العالم ، فانسحبت بريطانيا من اليونان وبورما والهند وأخذت سياساتها تستلهم بشكل خاص اعتبارات الحرب الباردة وعلاقتها مع الولايات المتحدة فضلا عن أن أزمة اقتصادية كانت تطحنها . فى هذا السياق وتحت ضغط هذه العوامل تتخذ الحكومة البريطانية قرارا بـ «التخلص من المرحلة الفلسطينية» . وفى 14 فيفرى (شباط) 1947 يعلن بيفان الوزير العمالى للشؤون الخارجية ان بريطانيا ستنسحب من فلسطين وتضع مسؤولية اتخاذ قرار حول مستقبل فلسطين على عاتق هيئة الامم المتحدة .

فى ذلك العام 1947 كان ثمة سبع دول فى وطن العرب . وكانت دولا مستقلة يتجسد دليل استقلالها فى كونها أعضاء داخل الامم المتحدة . كانت القوة العسكرية الحاسمة فى أربع من هذه الدول تتمثل فى القوات العسكرية الاجنبية التى كان هدفها المعلن حماية هذه البلدان من الغزو السوفياتى . وكانت اثنتان من بينها تعتمدان فى بقاء الهيئة الحاكمة فيهما كما تعتمدان فى مصروفهما اليومى على رضا وكرم شركات النفط العاملة فى أراضيهما . وفى واحدة أخرى كان أمير الهيئة الحاكمة لا يملك تحديد حجم مخصصه الشهرى . وفى أخرى كان كل ما يجرى خارج حدودها لا يعنيها . وأخرى اتخذت من التوازن والحياد عقيدة وأى خروج عن التوازن والحياد يجر الهلاك الفورى .

فى ظل هذه الاوضاع جاء مشروع تقسيم فلسطين . وفى فلسطين كان قد حدث تطوران فى الفترة الممتدة بين عامى 1917 و 1947 . ازداد عدد السكان اليهود بفعل الهجرة أساسا من 50 ألفا فى بداية الفترة الى نحو

---

(11) ياسين الحافظ من وعد بلفور الى قيام الدولة ، شؤون فلسطينية عدد 81 - 82 ، أوت / سبتمبر 1978 .

650 ألف فى نهايتها . وفى الفترة نفسها ازداد عدد العرب من نحو 600 ألف الى ما يقرب من 1،4 مليون نسمة.وامتلك اليهود فى نهاية هذه الفترة ما يقرب من 5 بالمائة من مجموع أراضى فلسطين • وفى مشروع التقسيم قررت اللجنة الدولية التى أعدت المشروع منح أكثر من ثلثى اراضى فلسطين للدولة اليهودية التى سوف يتألف سكانها من عرب ويهود يتواجدون باعداد متقاربة • أما الدولة العربية فى فلسطين فقد ضمت الاراضى التى يعيش فيها اليهود •

لم يكن قبول المشروع ممكنا بالنسبة الى السكان العرب فى فلسطين • فالاراضى الخصبة ومئات الالوف من العرب كان مصيرهم بموجب مشروع التقسيم خاضعا لمقتضيات واحتياجات السلطة الصهيونية البحت . وعدم امكانية قبول مشروع التقسيم كان واضحا وضوحا تاما لدى واضعى المشروع •

الامر الذى لم يلق ما يستحق من عناية هو أن القيادات الصهيونية كلها كانت ترفض مشروع التقسيم أيضا • فالدولة اليهودية التى كان مستقبلها مرهونا باستقبال مئات الالوف من المهاجرين اليهود لم تكن تستطيع تحقيق هذا الهدف فى ظل شروط مشروع التقسيم • فوجود مئات الالوف من العرب الذين يمتلكون القسم الرئيسى من الاراضى داخل حدود الدولة اليهودية كان يشكل عائقا يستحيل تجاوزه فى وجه نمو الدولة اليهودية سواء من الناحية السكانية أو من الناحية الاقتصادية أو من الناحية العسكرية • مستلزمات وجود وبقاء المشروع الصهيونى كانت مرهونة بتحقيق الشعار القائل : «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» • أما مشروع التقسيم ، اذا أخذ بحرفيته ، واذا تناسينا النيات المبيتة ، فقد كان يتعارض مع الضرورات الاولية لتحقيق المشروع الصهيونى •

فى المعسكر الصهيونى ، كانت هناك سياستان والسياستان لا تقعان ضمن مجال «تحديد الاهداف» بمقدار ما تقعان ضمن مجال «العلاقات العامة». سياسة تقوم على الاعلان عن الهدف الصهيونى وعن الاجراءات الضرورية لتحقيقه : الحدود النهائية التى تضم بالاضافة الى فلسطين جنوبى لبنان حتى الليطانى وحوران وشرقى الاردن حتى الخط الحجازى . افهام العرب ضرورة مغادرة أراضى الدولة اليهودية سواء بالبيع والشراء أو بالقوة المسلحة • وذلك بالاضافة الى التفاوض العلنى مع الدول التى تمتلك طوائف يهودية لطرد هذه الطوائف وترحيلها الى فلسطين عنوة ان لم تأت أعداد كافية منها اختيارا •

أما السياسة الاخرى فكانت تتعمد تجنب استعمال كلمة «دولة يهودية»

وتستبدلها بعبارة «وطن قومى لليهود فى فلسطين» ، أو بعبارة «كومنولث يهودى» فى فلسطين . وفى الحالتين الاخيرتين يستطيع القائد الصهيونى أن ينفى النية فى طرد العرب أو احتلال أراضيهم . وما دامت هذه المدرسة الصهيونية قد نجحت فى تجنب استخدام عبارة «دولة يهودية» فانها تعفى نفسها من رسم حدود لهذه الدولة . وما دامت لم ترسم الحدود فانها تنجح فى عدم اعطاء فكرة واضحة عن عدد اليهود اللازم لملء هذه الدولة وتلبية احتياجاتها السكانية . وبالتالى فانها تطمئن اليهود غير الراغبين فى الهجرة بأنها لا تتآمر مع حكومات البلدان التى يعيشون فيها لطردهم وترحيلهم الى فلسطين .

كانت المدرسة الثانية هى الاقدر على قيادة الحركة الصهيونية سواء خلال عهد الانتداب أو فى الفترة التى تلت اعلان الدولة (12) .

عندما نقل أمر البت بمصير فلسطين الى المجتمع الدولى ممثلا بهيئة الامم المتحدة ، كان اليبشوف قد حقق انجازين : الاول يتمثل فى استبدال الدولة الحليفة ــ الحامية فأصبحت الولايات المتحدة (بدلا من بريطانيا) التى برزت بوصفها الدولة الاقوى اقتصاديا وعسكريا بعد الحرب العالمية الثانية حيث تكون فيها لوبى صهيونى يملك قدرا ملحوظا من النفوذ والتأثير على النخبة السياسية الاميركية . ولقد انبثق هذا اللوبى من مؤتمر بلتيمور المنعقد بين 9 و 11 ماى (أيار) 1942 فى نيويورك ، حيث ناقش المؤتمر شكاوى اليهود من الادارة البريطانية وتقرر الاضرار على أن يقوم فى فلسطين «كومنولث يهودى يصبح جزءا من كيان العالم الديمقراطى الجديد» . وأكد بن غوريون أن القوة ستستعمل لتنفيذ هذا الهدف اذا ما اقتضى الامر بما فى ذلك فتح أبواب الهجرة الى فلسطين أمام اليهود تحت اشراف الوكالة اليهودية . الثانى يتمثل فى أن اليبشوف استطاع بأفعاله أن يقنع المجتمع الدولى بقوة مواقعه فى فلسطين وبالقوة التى يملكها وبفعاليته فى حرب العصابات التى يشنها على الانكليز وارادته الراسخة فى الاستقلال وباستحالة تعايشه فى دولة واحدة مع عرب فلسطين .

على هذه الارضية ولد قرار هيئة الامم المتحدة فى 29 نوفمبر 1947 الخاص بتقسيم فلسطين . لقد وضع اليبشوف العالم وعلى رأسه أميركا والاتحاد السوفياتى أمام أمر واقع ليس فيه خيارات بل خيار واحد .

حتى السياسة الاميركية لم تخل هى أيضا من تذبذب . فبعد أن أيدت

---

(12) نزيه قورة . أى حكم ذاتى . شؤون فلسطينية عدد 85 . ديسمبر 1978 .

قرار التقسيم بل بعد أن ألقت بثقلها السياسى لاقراره وكسب المؤيدين له من الدول المترددة ، عاد مندوبها فى هيئة الامم المتحدة ، أوستن ، ليعلن فى 19 مارس 1948 فى مجلس الامن عن تبدل فى السياسة الاميركية . فاقترح وقف قرار التقسيم وعقد هدنة فى فلسطين ودعوة الجمعية العمومية للموافقة على مشروع وصاية على فلسطين .

هذا التبدل فى الموقف الاميركى يبين لذوى الالباب ولكل من لم تسيطر عليه الرؤية المؤامراوية ، كيف أن قرارات الدول الكبرى ليست نهائية ولا «مخططة منذ زمن بعيد» من قبل «عقول كلية الوعى» . بل هى أيضا قرارات عادية تصنع يوما فيوما أحيانا . يقينا انها قرارات دولة حديثة . لكن من قال : إن القرارات الحديثة لا تنطوى على تقلبات وتذبذبات بل أخطاء أيضا ؟ من قال : إنها لا تتأثر بوجه خاص بميزان القوى وبالامر الواقع ؟ (13) .

لقد أقيمت الدولة الصهيونية دولة للشعب اليهودى بأسره . وهذه الرؤية لا تشجع على القيام بعملية محدودة لنقل السكان أو طردهم فحسب، وانما تترجم نفسها الى توسع لانهائى . وقد طلب صحفى صهيونى من هيرتزل بعد انتهاء المؤتمر الصهيونى الاول ان يدرس «برنامج فلسطين الكبرى قبل ان يفوت الاوان ... انك لن تستطيع ان تضع عشرة ملايين يهودى فى أرض مساحتها 25000 كيلومتر» . كما طلب الصهيونى غير اليهودى وليام هكلر من هيرتزل (فى 26 أفريل 1896) أن يتبنى الشعار التالى ويروجه شعارا للدولة اليهودية : « فلسطين داود وسليمان » . ويبدو ان الاقتراح قد ترك انطباعا ايجابيا لدى الزعيم الصهيونى لانه بعد عامين حدد منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من «نهر النيل الى الفرات» . وقد كتب هيرتزل فى مذكراته ان حدود الدولة سوف تتسع بمقدار تزايد السكان اليهود : «كلما زاد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الارض» . وفى 12 فيفرى 1952 تحدث موشى دايان صراحة عن انشاء امبراطورية اسرائيلية . ويرى وزير الخارجية الاسرائيلى السابق عملية التوسع على انها عملية مستمرة لم تنته بعد . فعملية بناء الوطن ـ على حد قوله ـ بدأت منذ مائة عام أى عملية البناء والتوسع وجلب المزيد من اليهود وتشييد المستعمرات : «لن ندع أى يهودى يقول : « إن هذه هى نهاية العملية ولن ندع اى يهودى يقول : إننا نقترب من نهاية الطريق» (14) .

---

(13) ياسين الحافظ . نفس المصدر .

(14) عبد الوهاب المسيرى : الايديولوجيا الصهيونية . دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ؛ الكويت : 1982 .

سنة 1940 كتب يوسف فيتز يقول : «وليكن واضحا أنه لا يوجد مكان لشعبين فى هذه البلاد . واذا هاجر العرب البلد اكتفينا بذلك ... » الا أنهم لم يكتفوا « بذلك » حتى بعد طردهم السكان الاصليين .

ان المادة : (7) من معاهدة الانتداب البريطانى لفلسطين تشير الى ضرورة سن قانون من شأنه أن «يسهل لليهود المستوطنين فلسطين بصفة دائمة اكتساب الجنسية الفلسطينية» ۰ ويشير قانون الجنسية الذى صادقت عليه الكنيسيت يوم 1 أفريل 1952 (الفصل الثالث ـ مادة 14) الى أن «الحصول على الجنسية الاسرائيلية غير مرهون بالتخلى عن جنسية سابقة، وأن أى اسرائيلى يكون فى الوقت نفسه مواطنا أجنبيا يعتبر اسرائيليا فى ما يخص تطبيق القانون الاسرائيلى» ۰

ومن المعروف أن عددا من الشخصيات الاسرائيلية ـ فضلا عن المواطنين العاديين ـ لهم أكثر من جواز سفر واحد . ولا شك أنهم ما زالوا يحتفظون بالجواز الذى أتوا به من بلادهم الاصلية الى فلسطين ۰ بل ربما بدا لهم حتى المشاركة فى انتخاب الرئيس الملائم فى بلدهم الاصلى ۰ ما المانع ؟

لقد فهم الصهاينة أن هذا العالم ليس سوى خريطة كبيرة لدول داخل الدول وحروب داخل الحروب وسلطات داخل السلطات وقوى داخل القوى واستعمار داخل الاستعمار ۰ ولم يبق عليهم آنذاك سوى التحرك من الموضع الذى يوجدون فيه أينما كانوا ۰ وهو ما عبر عنه هيرتزل بقوله : «فليسمحوا لنا بالسيادة على رقعة صغيرة من الارض تكون متناسبة مع طموحاتنا الشرعية وسنعرف تماما كيف يجب أن ننتظم . لكن أين تقف طموحاتهم الشرعية » ؟

من أبسط التعاريف التى اصطلح عليها المؤرخون للدولة ، واحد يقول بأنها قطعة أرض يقيم عليها عدد من السكان المتجانسين تقوم عليهم سلطة تمثلهم ۰ وفى الظروف العادية يجرى تخطيط الحدود الدولية بالاتفاق بين السلطة القائمة فى الدولة والسلطات القائمة فى البلدان المجاورة ۰ وتكتسب الحدود المتفق عليها بهذه الطريقة صفة الشرعية الدائمة بحيث تصبح مناعتها وحصانتها مظهرا من مظاهر السيادة الوطنية للسلطة القائمة ۰ ولكن الظروف غير العادية التى نشأت فيها اسرائيل جعلت المراحل الطبيعية لتخطيط الحدود أمرا منسيا طوال تاريخها القصير . فما هو التصور الذى يحمله الاسرائيليون عن حدود دولتهم ؟

(يتبع)

هشام القروى

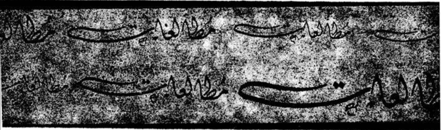
وَاحَةُ العُمُر

شعر : رمضان لطيفي

واجمٌ .. والتّصحُّرُ يأتي على واحةِ الظلّ
حبّاتُ رمل البراري
تسارعُ في الزّحف نحو الينابيع .. والأعين الدافقاتْ ...
وذي واحةُ العمر قفرٌ !
فما عاد للنخل نُسغ
وأعذاقنا ، قاطعتْها الرّياحُ اللواقحُ
جُفّفَ إكسيرُها ،
ومعين الحياة مواتٌ ... مواتْ ! ؟

* * *

واجمٌ .. وأمامي غربان بَيْنٍ
جذوعٌ عجاف بأرض يبابْ !
وذي واحةُ الفيءِ
مغبرة الأفْقِ !
مزورّة الوجهِ !
موعودةٌ باندلاع الضّبابْ
وذي واحةُ العمر قفْرٌ !؟
مرايا خداعْ ..
وقبض رمادْ !



قراءة أولى :

في ديوان : ".. وأجهش بالغضب !" للصادق شرف

بقلم : البشير المشرقي

كنت .. وما زلت أعتقد أن الشعر الخالص هو ذاك الذى ينفذ الى القلوب والنفوس بواسطة مجموعة من الادوات التى بدونها لا يكون الشعر شعرا ولا يكون للكلمة الشعرية الحيز الجدير بها على خارطة التعبير الفني . ومن هـذه الادوات ـ كما لا يخفى ـ عنصر الموسيقى الموحية التى تساعد على تقبل مـا يصبو اليـه الشاعر من تعبيـر عاطفى ، الى جانب التزامه العناية بالصورة الشعرية التى يعمل جاهدا على أن تكون فى مستوى الجمالية التى تتطلبهـا حقيقة العمل الفنـــى .

وليس عنصر الموسيقى أو الايقاع الشعرى من خصائص الشعـر العـربى دون سواه ، بل نجده يحتل مكانة قصوى فى كل عمل شعـرى مهمـا كانت اللغة التى أخرج بها الى حيز الوجود .

ولعل الشاعر الفرنسى « بول فرلان » قد عبر عن ذلك أحسن تعبير عندما قال فى احدى قصائده : « إن الشعر موسيقى.. وموسيقى قبل كل شىء .. ».

والصادق شرف ، كما عرفته وكما عرفه كل قـراء الشعـر في بلادنـا ، **يقف بقامته الشعرية الى جانب هذه الفكرة « الصفوية » التى تعطى للشعـر مكانته فى زمن كثر فيه الشعراء بدون حسـاب وأصبـح من يكتب سطـرا منثورا يدعى أنه شاعر لا يشق له غبار !**

لعل من يطلع على مجموعات الصادق شرف الخمس وعلى بعض ما كتبه نثرا يهتدي الى أنه من دعاة الانتقاء وغربلة الانتاج الشعرى للوقوف على الجيد منه ، كما أنه كان ولا يزال من المؤمنين بأن **تجديد القصيدة العـربية لا يمكـن أن يكون على حساب المعمار الشعرى الموجود بالفعل ، باعتبار أن التجديد يمكنه أن ينطق من داخل الهندسة المتعارفة للقصيدة . لا من خارجها .. وبدون هذا يكون النسف المجانى للهيكل القائم خارجا عن قوانين لعبة التجديد وداخلا فى مدار الهدم التلقائى الواعى .**

انطلاقا من هذا المفهـوم فـان قصائـد مجمـوعة « **وأجهش بالغضب !** » ستكون حتما ملتزمة بايقاع القصيدة العـربية ، وإن اختلفت الصياغـة من قصيـد الى آخـر ، ذلـك أن الصـادق شـرف لا ينحـاز الى القصيـدة العمـودية وحدهـا ، أو الى القصيدة المتحـررة دون سواهـا (I) بل تـراه يمارس الشعر العمودى والحـر على حـد سـواء ، تماشيـا مـع مقتضيـات الموضـوع وظروف القصيـدة .. الحقيقـة أن الظـاهرة التى لا يمكـن غض النظر عنها تتمثل فى أن شاعرنا ليس ممن يقفون فى قصائدهم عند حد معين، أعنى أنه من انصار المطولات التى تحملك على أن تحاول اقتفاء أثر الشاعر وهو يجرى .. والواضح ان هذه الظاهرة تعاينها فى كل مجموعات شرف تقريبا ، ابتداء من « **شواطىء العطش** » وانتهاء بـ « **وأجهش بالغضب!** » .. ولعل ذلك ناتج ، كما بين الاديب **د. محمد صالح الجابرى** فى كلمته الاولى التى صدر بها هذه المجموعة عن « **امعانه فى الاصرار على المواجهة .. يكفى صاحبها أنه يضعنا دائما أمام الخيار الصعب فى أن نقرأ له باستمرار وأن نستشعر وجوده رغم أنوفنا .. ولعل هذا بعض ما يجب أن يتحلى به الشاعر الذى يعيش فى وسط لا يعبأ بالفكر وأهلـه** » .

وكأن شاعرنا ، بطول قصائده ، وبتلاحق مجموعاته الشعرية الواحدة تلو الاخرى ، يريد أن يقنعنا بأن الشعر صعب وبأن الدرب طويـل ، ولذلك تراه

(I) نعني بالقصيدة المتحررة : القصيدة الموزونة بالتفعيلة ، فى غير ما تقيد بالبحر والقافية الموحدة .

يطوى المسافات طيا ، قصد بلوغ الهدف عن طريق اختصار المسالك المؤدية إليـــه ..

أبو وجدان من الشعراء القلائل الذين ينفردون بالخصوصية فى كيفية رصد الحدث العادى وتحويله الى حدث شعرى هام وهو لعمرى عمل صعب ليس فى متنـاول كـل الشعـراء . فالشاعر الفرنسى « بودلير » كان يستمد صورته الشعرية الجميلة من الاشياء القبيحـة ، أعنى أنـه يتصيـد المواضيـع التى تبـدو لـك تافهـة ويسمـو بهـا الى عـالمه الشعـرى ويصوغها كأحسن ما تكون الصياغة .. ولعل هذا من متناقضات الامور ، ولكن الابداع الشعرى لا يقوم على المسلمات أو البديهيات فقط ، بل يعتمد أيضا على الاشياء المتبـاينة والمتضاربة ، طبقا لانفعالات الشاعر وانسكاب المواضيع المرشحـة لديـه فى بوتقة محاصيله النفسية والمزاجية والفكرية والعقائدية ... الخ .

لهذا كله كان شعر الصادق شرف من قبيل الشعر الذى يتسم بالمفاجأة ، مفاجأة القارىء بما هو جديد وطريف بل تراه دائما يصبو الى مباغتته بالفكرة التى تدعوه الى التأمل واعمال العقل ، لان الشعر ليس عاطفة فحسب ، بـل هو أيضا فكر واعمال رأى وحث على ذلك ، لان الشعر الذى يعتمد على السليقة دون سواها لا يكون شعرا متينا ، بل على عكس ذلك ، يكون مهزوز الاركان ، قاصرامبتـــورا .

والصادق شـرف من فصيلـة خاصـة من الشعـراء ، **اذ انـه لا يهتـم** بالغزل ولا بالمديح ولا بالرثاء ولا بالبيانات السياسية الممجوجة **(وهى ظاهرة مرضية أصبحت تعترى كيان الشعر عندنا)** ، بل تراه يبحث عن المستحدثات وعن عنصر الطرافة فى الاغراض المطروقة . ويبدو ذلك جليـا فى قصيـدته « الفاس والفيتو و **(الرملوك)** العربى » . التـى أبدع فيهـا الشاعر ، حيـث صور الارض العربية السلبية تصويرا موحيا وشبهها بالمرأة التى اغتصبها الدخلاء ولم تجد من أهلها من ينصرها أو ينقذها .

المـرأة اغتصبـت أمـام الطفـل وانسحـت الـرجـال .!
تتكبد الاوجاع .. كل خسائر الأغراس فى عرس القتال ..
تتوجع الاوضاع فيها .. والحديد بها يميد .. على الجبال .. (2)

فهو ثائر على الاوضاع ، ناقم على ما أصبح يتردى فيه الانسان العربى من خنوع ومذلة وانحلال :

---

(2) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 13 .

عاصرتك يا أمي جيلا .. جيلا .. كعشيقين التحما ..

في قبلة حب للوطن الارحب ،

وخرجت من القبلة مهزوز الشفتين بلى أترى أغضب ؟!

والشفة المهزومة .. لن تنتجع اليد معجزة التكويـن .. (3)

ويحس الشاعر أن صيحته لم تجد من يصغى اليها ويخيل اليه أن مساعيه ستؤول الى الفشل :

يا العالم المتحضر .. المتوحش .. الانسان حر أم عبيد ؟

إن لم يكن هو لجة للفوهة الكبرى .. تلمجه الحديـد .. (4)

ورغم ذلك فهو لم ينسحب من الساحة ولم تفتر قواه ، بل بقى على العهـد يرنو الى الشمس الآتية من بعيد لتغمر أرجاء الوطن الحبيب :

سأظل يا وطني المعتكب بالحديد سفينة

أرسانها في الرمل ضاربة

ولكن التحرك في السفينة ما سكن ..

وانا السفينة ما وجدت اليبس لي وطنا فكان البحر لى نعم الوطن!.(5)

ومن مظاهر وفاء الشاعر لوطنه أنه يحبه في الضراء كما يحبه في السراء ، انظر اليه وهو يناجي وطنه « تونس » بعد أحداث 3 جانفى الاخيرة التي كادت أن تأتي عليه حزناً فصدع وفى نفسه حسرة :

---

(3) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 15 .

(4) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 12 .

(5) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 79 .

مـا للفتى التـونسى استـل منجلـه   كى يحصد الشوك اذ بالورد ينحصد؟
يا تونس الحب .. بـان الحقـد قنبلـة   فى خبزة الشعب أخفاها الألى حقدوا(6)

ولكن الحب سيظل هو الغالب ، وطالما كان الحب غالبـا فالوطن سيبقى شامخا عتيدا :

راهنت أن انتصار الحـب مهـر غـد   إن يضعف الحب، هل يرضى به أحد؟(7)

ومن مظاهر شعر الحنين الى الاوطان ، نجد قصيدة رقيقة بعنوان : « باقـة حب الى عاصمة الدخلة » ، يقول فيها مناجيا مسقط رأسه منزل تميم :

منزل تميم ولاية .. وقليبها مينـاء   وزماننا متقلب : هل تقلب الاشياء ؟
الـدخلـة الفيحـاء نحـن بصدرهـا   والاقـربـون بـهـا هـم الاعضاء
صـدر بلا أعضاء مبتـور .. وهـل   تجدى العباد ولاية بتـراء !؟ (8)

وفى المجموعة محاور أخرى جديرة بالاهتمام وتـدل على حـاسة الشـاعر اليقظة والمتتبعة لما يدور على الساحة ، كقصيدته عن « شحـرور الخضـراء » الفنان الراحل يوسف التميمى التى يقول فيها :

من فى برود البئر كان رمى بيوسف ؟ إخوة
يتسترون .. يلذ لى أن أفضح المستورا ..
أنا أعلم المرمين فى الآبار .. هذى البئر جمر ..
يوسف المرمى جثمانا يصير بخورا ..
....
أنا لا أقول : الفن مات بموت يوسف انما
فى أيكة الفن الاصيل انخلق الشحرورا ؟

---

(6) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 74 .
(7) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 76 .
(8) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 91 ، 92 .
(9) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 84 .

الله أكبر .. مات يوسف وانتهى

والله أكبر .. أكثر الاموات موتا من يعش مقهورا (9)

هذا الى جانب اهتمامه ببعض المظاهر الاجتماعية كتضخم النسل وما يمكن أن ينتج عنه من مضار :

فى البيت تسعة صبية وتزيد فعلى ذراع الأم ثم وليد ..
وغدا سيولد للجحيم جديد .. قل لى : وماذا فوق ذاك تريد ؟! (10)

ويظل الحب عند أبى وجدان قبسا رائعا ومرفأ اليه يلجأ كلما انسدت أمامه السبل :

أرجوك أعيدى الرج ، وقومى ببناء المخروب بفاس ألاعيبى
فخذينى من غربة روحى .. للردهة ... علّى أشفى
من مرض التغريب (11)

ومهما يكن من أمر ، فان الصادق شرف كان مسكونا بهاجس الشعر ولا يزال .. ولذلك فهو مصر على مواصلة الطريق دأبه المباغتة والمفاجأة التى لا ترحم . أليس هو القائل :

ها أنا الجدول يا بحرى ..
ولولا جدولى هل يصبح البحر عبابا ؟!
بعد ما طوفت فى الاجواء برقا .. ورعودا .. وضبابا .
ربما يرجعنى البحر .. وقد شاء بأن أصبح للعطشى انسكابا ..
....
.. ربما أبكى اذا ما أبقت الايام فى عينى دموع ..
جائع لكننى لا أعشق القوت ولكن اعشق القلب الذى مثلى يجوع (12)

البشير المشرقي

---

(10) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 46 .
(11) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 107 .
(12) ديوان : « وأجهش بالغضب » ص 124 ، 126 .

قراءات سريعة

• مجلة « المدينة العربية » وندوة الطرز المعمارية :

عن منظمة المدن العربية ، صدر العدد الثانى عشر من مجلة « المدينة العربية » (السنة الثالثة رجب 1404 هـ افريل 1984 م) ... محتويا بالخصوص على تغطية لندوة الطرز المعمارية المنعقدة بالكويت من 22 الى 25 ديسمبر 1983 والتى جاءت الاستراتيجية ثقافية عربية تقوم بوضع تخطيطها لجنة قومية من رجال الفكر فى الوطن العربى برئاسه الاستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء،رئيس المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، واشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ...

وأوردت المجلة موجز الابحاث التى قدمت للندوة وقام بها جمع من أهل الاختصاص فى فن العمارة ... وقد أوضح الباحث التونسى الاستاذ ابراهيم شبوح فى تدخله ان تعاقب اساليب العمارة مرتبط بتحول مراكز القوى فى العالم الاسلامى : خاصة وان هذه الاساليب كانت تمثل البناء الرسمى لعلية القوم لا المعمار الاجتماعى لعامة الناس ، ثم انها لم تدرس الدراسة التى تستوعب خصائصها واعمال كريزول وامثاله لا تكفى ولا اعمال ماسيه ورفاقه فى المغرب أو أعمال سوفاجيه وامثاله فى المشرق ، كما ان النظرة الحديثة ترتكز على الوضع الوظيفى للعمارة وعلى المدينة ككل والمدينة صورة لثقافة سكانها . وانعكاس لظروفهم الاقتصادية والاجتماعية وفيها شتى الحلول لمشاكلهم وانواع المبتكرات فى العناصر المعمارية ، اما الدكتور طالب الرفاعى فقد كان هدف دراسته هو تحديد الهوية المعمارية لبيئتنا المبنية فى الاطار الشامل لثقافة العربية باعتبار المدينة هى التجسيد المادى والمرآة الصادقة لوانع المجتمع وطموحاته ...

وقد قدم الاستاذ أحمد زكرياء الانصارى مجموعة من الاقتراحات الهامة يقول فى مستهلها : حفاظا على الاصالة ، وتمشيا مع ركب الحضارة بالنسبة لفن العمارة ، فلا بد ان يكون هذا الفن مرتبطا بالبيئتين الطبيعية والاجتماعية ، والمكان الذى يصمم من أجله المبنى ، ومتوافقا مع نفسية ومزاج المواطن المستفيد من ذلك المبنى ، وخلفيته الحضارية ، وان يحمل ملامح وروح وطابع تراثه ، مع الوفاء بمتطلبات الحياة المعاصرة ، وبطريقة تلقائية غير مفتعلة بعيدة عن التقليد او النقل الحرفى لكل من التراث ، والعمارة فى البلدان الاخرى ...

اما توصيات الندوة فقد وصلت الى حدود ثلاث وعشرين توصية ... نذكر منها بالخصوص : اقامة مركز للعمارة العربية الاسلامية لدراستها وتجميع وثائقها . ورعاية بحوثها ونشرها ، انشاء مركز قومى لصيانة المدن التاريخية العربية ، اقامة اتحاد للمعماريين العرب يوازى اتحاد المهندسين ، اقامة بنك للمعلومات المعمارية واعادة دراسة وتسجيل الكتب المؤلفة عن المدن العربية ، العمل على ترجمة وتعريب الكتب الباحثة فى العمارة الاسلامية من مختلف اللغات .

مصطفى عطيه

• نظرية التطعيم الايقاعى

صدر للاستاذ الشير بن سلامه أخيرا عن الدار التونسية للنشر كتاب قيم وسمه بعنوان : « **نظرية التطعيم الايقاعى** » يحتوى على ١٠٠ صفحة من القطع المتوسط انى جانب (ثبت لاهم المراجع) .

بعد التمهيد الذى نقرأ فيه : « **وانتهيت الى حقيقة اعتبرتها بديهية بالحدس لا محالة وتنتظر التدليل بالحس والاختبار وهو ان كل كاتب او شاعر مبدع طور الجملة فى النثر أو فى الشعر إنما قدر على ذلك لانه وفق الى أن يطعم الفصحى بايقاعات لهجته العامية وان قضية الابداع فى الكتابة إنما هى هذا التفاعل بين ايقاعات العامية والفصحى وان قضية الشعر العربى من حيث الشكل ليست فى التفعيلة أو غيرها بل تكمن فى البحث عن الوحدة الايقاعية ...** »

نجد ستة عناوين تتدخل كلها بين خيوط التطعيم الايقاعى طولا وعرضا لتكون لنا نسيج وحده لنظرية التطعيم الذى ينطلق منه البحث عن « الوحدة الايقاعية » حسب رؤية يراها بن سلامه ويعمل على

الافصاح عنها بأدلة علمية وعملية وفي ذلك ايجابية البحث بحثا عن الاضافة .

وعناوين الكتاب هي : تطور الجملة العربية عند المولدين ، الكلام واللغة ، الحد من التفاوت بين الفصحى والعامية ، العوامل الباعثة للغة طـه حسيـن (نثر طه حسين) ، تطور الجملة العربية في الادب الافريقي ، نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى .

• لوحات قصصية :

في اخراج انيق وورق صقيل وكتابة مشكـولة أصدرت الـدار العربية للكتاب للاستاذ البشير بن سلامه كتابا عنوانه : « **لوحـات قصصيـة** » وهي **قصصية لانهـا طمحت ان تنزع الشعر وتهرب من مأساة ردائـه الذي يضيـق طورا ويفضفض اخرى وقلما تلبس به ، وانطلقت الى رحاب هذا التعبير الزاخر كالحياة ، الآخذ بفنون الدنيا يحتضنها بقلب الوامق الولهان ...** » هـذه نبـذة من تعريف للوحات القصصية كتبها بن سلامه في المدخل .. وبالرغم من انهـا نبـذة الا أنهـا تحمل دلالات الاعتـراف الجميـل بـأن راوده الشعـر علـى نفسه ولكنه لم يستجب لان للشعر رداء يضيـق طـورا ويفضفض أخـرى .. فكانت القصة لديه أرحب تعبيرا وآخذ من غيرها بفنون الحياة .. فهذا الاديب لم ينبهر ببريق (الشعر) ولم يستسلم ليكون شاعرا رغم أنف الشعر كما يفعل بعضهم التصاقا منهم بذلك البريق وركضا وراء صداءاته ولو كان ما يكتبونه نظما أو نثرا والشعر غير النظم وغير النثـر .

عناوين هذه اللوحـات القصصية تبدأ بالحب ، مولد الانسـان ، الحيـاة والموت ، الشاعرة ، الكبشان ، انعتـاق ، ضمير الغـائب ، انفصـام أمـومه الكتابة فـوز لتمام الخيبة ، العجلة في الوحل ، صفارة جحـا .

تتسم هذه القصص باقترابها من القارىء الى حد تبادل الرأى معهفي التعبير والتركيب والانزياح القصصي واسقاط الحدث على واقع القارىء حتى لكـأنه المعني بالومضة المنبهة لما بعد الحدث ..

لقد نجح الاستاذ البشير بن سلامة أيما نجاح في الوصـول للقارىء نسفـا للحواجز حتى لكأنه يقول لقارئه : صوت التبليغ الواقف المتنقل بيني وبينك يعرف اني لا أراك وأنت تعرف أنه لا يراني الا بالقـدر الذي يستطيـع أن يقترب الواحد من الآخر وهذا قانون اللعبة بين الباث والمتلقي .

الصـادق شـرف

• ألف لا شيء عليه :

هذا عنوان العدد 39 من « الأخلاء » فيفرى 1984 الذى يتمثل فى سلسلة من اللوحات ـ يسميها صاحبها محفوظ الزعيبى رواية ـ التى تصور ألوانا من حياة القرية الصغيرة الفقيرة العائشة فى القرون الوسطى بجميع مظاهر التخلف والتعصب والتزمت كما تصور مأساة الفروى الـذى لم ينجح فى التأقلم مع حياة المدينة حيث صادمته الخيبة مع حياة الغربة التى واجهته فيها العنصرية ثم مأساته عند رجوعه الى القرية التى يجدها على حالها مغلقة إغلاقا تاما للتطور والنمو راضية بالبقاء على مظهرها البشع (على حد قوله) .

وأصبح تفكيره فى فهم الاسباب ووضع الحلول ومعالجة الادواء لكن أيمكنه ذلك وقد أنهكه السفر وانتهى بهزيمة بعد تجارب كثيرة ؟ قد دمر كل الطموح فى مواصلة الدراسة بعد أن كـان يتمنى أن يغيـر ما بنفسه ويحطم ماساته ومأساة القرية .

وينطلق صوت من الاعماق يخترق الزمن ويشق السنين يـرن فى أذنـه مرددا بقوة « ألف لا شيء عليه » هو صوت مؤدب القرية فتنطلق أصوات أطفال الكتاب مبحوحة ممزوجة مرددة « ألف لا شيء عليه » تلاحقه وهو يبارح القرية ثانية متمنيا أن يعود اليها من جديد .

• قصة بنى هلال :

بقرار من « جمعية الكلاسيكيين الافريقيين » وبمـؤازرة المركـز القـومى للبحث العلمى بباريس نشرت دار « أرمان كولان » قصة بني هلال وما جرى فى تغريبهم (حسب الروايات التونسية للمسيرة الهلالية) فى نصها العربى التونسى تقابله ترجمة باللغة الفرنسية مع شروح لغوية ومرجعية وبايضاحات تاريخية اشترك فيها عبد الرحمان أيوب وميشلان ڤالية .

والمقدمة وهى من وضع ميشلان ڤاليه تمثل تتبعا موجزا للمسيرة الهلالية انطلاقا من أرض نجد بالجزيرة العربية مرحلة مرحلة حتى المحيط .

ويتكون النص نفسه المصحوب بالترجمة الفرنسية من نسختين للمسيرة نسخة شعرية من نفزاوة (الجنوب التونسى) ونسخة نثرية تونسية أيضا من رواية محمود بن الحاج محمود من بلدة تشين فى جنـوب مطمـاطة بالجنـوب التونسى ويتخلل النسخة النثرية هنا وهناك مقاطع شعرية .

وينتهي الكتاب بفهارس عدة أولها وأهمها فهرس تحليلي ثم تليه فهارس للحيوانات ـ المكائنات الخرافية ـ للاماكن ـ للاعداد ـ للاشخاص وللمجموعات البشـريـــة .

وبالكتاب أيضـا بعض الخرائط والرسوم (للمجموعـات الاجتماعية والانساب) واللوحات الملونة .

• دوائــر الزوايـا المتــداخلة :

كتاب صادر بتاريخ 1983 عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان بطرابلس ليبيا بقلم أمين مازن يتناول نواحي مختلفة من الادب المعاصر ، من القصة القصيرة الى فن الرواية الى تأملات فى الشعر والشعراء (أمل دنقل ـ محيي الدين خريف ـ شوقي بغدادي وجوانب من شعر أحمد شوقي) .

• الشعــر شهــادة :

هو عنوان العدد 75 (مارس 1984) من سلسلة « كتاب الشعب » الصادرة فى الجماهيرية العربية الليبية عن المنشأة العامة للنشر والتوزيـع والاعـلان والكتاب مجموعة دراسات فى آثار شعراء من تونس أكثرهم شبان وهم على الموالي : الميـداني بن صالـح فى « قـرط أمـي » ، والطيب الشـريف فى « انعتــاق » ، والمختــار اللغمــاني ـ رحمه الله ـ ذلك اللحن الذى لم يتم فى بعض شعره ، ومحمد عمار شعابنية فى « الغام فى مدينة بريئة » ، والمنصـف المزغني فى « عناقيد الفرح الحاوي » ، والمنصف الوهايبي (الفتى الضليل) ، ومحمـد الغـزي وتحديث العشق (قصيدة العاشق الفرد ـ كتاب الماء كتاب الجمـر) .

• الآداب السوفيــاتية :

هى مجلة اتحاد الكتاب السوفيات الصادرة بموسكو بثماني لغـات عـدا الروسية وبين أيدينا العدد 303 (1984) وهو كالاعداد الاخرى ثري المحتوى نثرا وشعرا وآراء وتبادلات ونشاطات مسرحية وفنية فى الرسم خاصة محلاة بصور ملونة للوحات للرسام سيميون كابلان وأهـم ما فى العدد نص لأولقـا كوجوخوفا ونص عن حياة الزعيمة النسائية والسفيرة مـدة ثـلاثين سنـة الكساندرا كولو نطاي وكانت المثال للمرأة المتحمسة لخدمة المرأة وخدمة بلادها فى فترة هامة وصعبة ـ ونص كذلك فى « الحقيقة الفنية كمعيار جمالي » .

ويتصدر العدد صورة للرئيس الحالي تشارنكو وترجمة لحياته .

• حكايات من مناجم الحزن العربي :

العدد 40 من « **الاخلاء** » موسوم بـ « **مجموعة تعبيرية** » للاديب الشاب التهامي الهاني ،فيها الكثير من الشاعرية ومن الشعر على أنواعه : قصائد عمودية وأفقية وخارجة عن هذه وتلك – في محاولات نجدها طيبه وواعدة وواعية **بالميزة الخاصة للشعر العربي التي هي التفعيلة والتي لا يمكن أن يكون بدونها شعر عربي** ، فخذ التفعيلة وتصرف واجتهد فيها (فما اغلق الفراهيدي باب الاجتهاد وما كان ذلك من حقه أو من حق أي غيره) لكن لا تتركها ولا تتنازل عنها والا **مسخت الشعر العربي وقضيت عليه وعوضته بما لا يمكن ان يكون شعرا عربيا** .

• حبك قدري :

صدر لحياة بن الشيخ في أبريل 1984 مجموعة شعرية بعنوان « حبك قدري » ، والمفهوم من قصائد المجموعة التي بين أيدينا لا من العنوان فقط أن الحب هو قدر هذه الشاعرة فهي تهفو حبا وتذوب شوقا وتطرب مسحورة لكل دعوة ولا ترفض نداء بل تتوسل اليه في رجاء صامت أن تضحى النشوة نشوتين فتجد نفسها مسلوبة العقل من اليقظة والحلم بين بين .

ومأساة حياة بن الشيخ في أنها تؤمل أن يكون الحب الحسي وفاء وهذا ليس من مزاجه وجوهره لانه لا شبع فيه ولا قناعة ولا اكتمال انما هو توق دائم الى الجديد دون رضى عن القديم والمتعاقد المألوف والوفاء الحقيقي لا يمكن أن يقترن الا بالعشق العذري وعشق الروح هو العشق الحق لا عشق الجسد المقترن بفنائه .

فلماذا إذن هذا « الحب الاسود » وهذه النقمة على الرجال والحقد عليهم وجعلهم « سبب التعاسة والضلال » !؟ ولم هذا التداعي الى « وادي الاسى » الشبيه كل الشبه به « صلوات في وادي الموت » في رقة الشابي وحساسيته لكن في غير شممه!؟ولم نداء الموت (أيها الموت أغثني)!؟أما تجدر مواصلة الحياة من أجل تلك الذكريات النيرانية والنورانية التي تحسن حياة بن الشيخ التعبير عنها في حساسية مرهفة بلغة شفافة وخيال لماع !؟ من أجل تلك الشظايا النيرانية والنورانية التي ما زالت تصفعها وتلهبها لكن تنجو بها من جحيم الحياة الى نعيمها في لحظات وميضية لا محالة ولكنها خالدة سيذكرها تاريخ أدبنا العربي بالخير والجميل .

محسن بن حميده

● **مجمع اللغة العربية بالقاهرة يشيد بمناقب الاستاذ محمد مزالي :**

نشرت جريدة « العمل » بقلم الصديق سالم جراد (أستاذ ومنتج باذاعة المنستير) بتاريخ 1984/5/26 ص 13 ما يلي :

مما لا يختلف فيه اثنان ان السيد محمد مزالي رجل فكر وأدب ولغة الى جانب حذقه السياسة وتسيير دواليبها ، ولا غرابة فى ذلك اذ هو التونسي الاصيل المتخرج من المدرسة البورقيبية الفذة ، والوطني الغيور على تونسنا العزيزة ، والعربي المسلم المعتز بحضارتنا العربية الاسلامية .

لذلك فلا نعجب ان نسمع عنه الكثير والكثير على امواج الاثير من خلال الاذاعات العربية وهي تشيد بمناقبه ، وبالفعل ذلك ما شدني أخيرا الى اذاعة القاهرة متتبعا برنامج « النادي الثقافي » الذي يعده ويقدمه السيد « فاروق شوشة » الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا بتوقيت تونس من كل يوم سبت .

وقد استضاف المنتج المفكر ابراهيم بيومي مدكور « رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة » . وتمحور الحديث حول الاحتفال بخمسينية هذا المجمع .

وعند استفساره عن الضيوف الذين سيتشرف بهم هذا الحفل اشار ضيف البرنامج مباشرة الى الاستاذ محمد مزالي فركز على ذلك خصاله ومناقبه الادبية والسياسية ومدى مواظبة سيادته على مراسلة هذه المؤسسة العلمية التي قدمت وما زالت تقدم كل جديد الى اللغة العربية خاصة في هذا القرن وما يكتسبه من تطور تقني مطرد .

وصرح السيد إبراهيم مدكور ان هذا المجمع يعتز كل الاعتزاز بانتماء الاستاذ محمد مزالى اليه ولذلك فانه سيجعل لسيادته كراسا خاصا لترجمة حياته وذكر ابرز الاعمال التى يقدمها لخدمة وطنه وأمته والانسانية جمعاء .

وكل ما سنستخلصه منهذهالاشادة وهذا التنويه هو انللسيد محمد مزالى مكانة ممتازة فى قلب كل عربى . اذ هم يثقون بكل انتاجه الفكرى والادبى ومقترحاته البناءة لدعم حضارتنا العربية الاسلامية ، وكذلك غيرته على وطنه تونس والعمل على الرفع من شأنها داخليا وخارجيا .

ونحن هنا فى تونس سيكون فخرنا بسيادته اكثر سواء فى الميدان الفكرى والادبى أو السياسى وذلك بوصفه وزيرنا الاول يعمل أثناء الليل واطراف النهار مسيرا لدواليب حكومة المجاهد الاكبر الشعبية بكل صدق واخلاص ونزاهة ونظافة يد حتى تكون بحق فى مصاف الدول الراقية ، ويبلغ اعتزازنا وفخرنا بمناقبه مداه خاصة لما اضاف له فخامة الرئيس وزارة الداخلية وكلنا يعلم مدى حساسيتها وكل ذلك ناتج عن الثقة الغالية التى جددها فى شخصه قائد المجاهدين .

ذلك هو السيد محمد مزالى الذى نبع من أرضنا التونسية الطيبة المعطاء ، ونشأ وترعرع فقيرا ، فاجتهد ليلا ونهارا حتى غرف من العلم والمعرفة ما استطاع ليفيد ابناء جلدته بدون مركبات فهو لم يبدل من طبعه الشعبى وحرص كل الحرص على ان يكون دائما ملتصقا بهذه الارض السخية وشعبها الكريم بكل طبقاته .

وفى ختام هذه الخواطر أهيب بشبابنا التونسى الأبي ان يعتبر بهذا وان يحافظ على كل مكاسبنا العملاقة التى حققها هذا النظام الذى ما انفك يحقق كل خير لهذه الامة ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

● **الوحدة والتنوع فى الأدب العربى المعاصر :**

بقلم الاستاذ عبد العزيز شرف وفى ركن « أدب » نشرت جريدة ؟ رسالة تونس تحت عنوان : « الوحدة والتنوع فى الأدب العربى المعاصر » جاء فيه ما يلى :

اذا الشعب يوما أراد الحياة — فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي — ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة — تبخر فى جوها واندثر

وكذلك قال لى أبو القاسم الشابى شاعر تونس العظيم الذى رددت الشعوب العربية جميعا ابياته التى صدرت بها رسالتى هذه وشدت بشعره جميعا وكذلك أكد فى هذا الشاعر ما نذهب اليه مع الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية فى تونس من ان الادب العربى يمتلك بأصوله الممتدة قرونا طويلة من مقومات الوحدة الكثير مما يجعل التنوع فى الادب استجابة طبيعية لمطالب الحياة اليومية .

ودراسة مفهوم الوحدة فى التنوع تقتضينا ان نؤكد دائما ان التنوع لا ينبغى ان يبعدنا عن الاصول الاساسية لوحدتنا الثقافية لانها وحدها القادرة على استيعاب طموحنا وآمالنا على مستوى الامة العربية والاسلامية كما انها تمثل مشاركة هذه الامة الصديقة فى بناء الحضارة الانسانية .

ويمثل هذا المفهوم مفتاح الشخصية الفكرية للكاتب الكبير البشير بن سلامه . ذلك ان أدبه النقدى والابداعى يسعى الى تأكيد مظاهر الوحدة الثقافية العربية المعاصرة المنبثقة من حضارة واحدة هى الحضارة العربية الاسلامية وتأسيسا على هذا الفهم نعاود الحديث عن تحقيق أواصر الوحدة الثقافية بين الجمهور المغربى والجمهور المشرقى . من خلال تيسير قنوات النشر التى تصب فى نهر الثقافة العربية المعاصرة .

يتجسد هذا المفهوم فى كتابه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971 » و « قضايا 1977 » و « الشخصية التونسية مقوماتها وخصائصها 1974 » ومن أعماله الروائية « عائشة » 1982 ، و « العابرون واللاهون » وكذلك فى ترجمة بالاشتراك مع الاستاذ محمد مزالى لكتاب : « تاريخ افريقيا الشمالية » تأليف شارل أندرى جوليان ، و « المعمرون الفرنسيون احركة الشباب التونسى » وغيرها من الاعمال الفكرية والقضايا التى اثارها فى مجلة « الفكر » التى يرأس تحريرها مشاركا الاستاذ محمد مزالى فى الصدور على امتداد ما يقرب من ثلاثين عاما ، على الرغم من انها مجلة غير حكومية شقت طريقها من أجل تحقيق الوحدة الفكرية التى بدأتها الصحافة الادبية فى الوطن العربى فعملت هذه المجلة العريقة على تأكيد الذات ودعم الشخصية العربية باعطاء الفصحى

المحل الارفع والتمسك بالحضارة العربية الاسلامية ومقاومة كل محاولات الانحلال . ولذلك يؤكد الاستاذ البشير بن سلامه على أهمية دور المجلات فى صيرورة التيارات الفكرية والادبية لا فى تونس فحسب بل فيجل بلدانالعالم عامة . وفى الوطن العربى بخاصة تحقيقا لمفهوم الوحدة والتنوع فى الثقافة العربية المعاصرة ومقاومة لما يسميه « الامبريالية الثقافية » التى تعتمد على الوسائل العصرية للابلاغ والاشهار فتعمد باسم حرية تنقل الافكار التى حرفتها نحو الاتجاه الذى ترجوه .

وقد تعرض الادب التونسى المعبر عن الشخصية العربية الاسلامية الى مقاومة عنيفة من الامبريالية الثقافية وما نال الشعب التونسى من تضييقات الاستعمار فى جمع مظاهر النشاط . لهذا ، كما يقول الاستاذ البشير بن سلامه ، لم يكتب لأدب الشابى ان يعرف فى تونس بصورة واضحة لا لبس فيها الا بعد الاستقلال سواء فى المدارس أو فى الحياة الثقافية ، وكذلك الامر بالنسبة لأدب الطاهر الحداد ، والدوعاجى ، ومصطفى خريف ، والمسعدى وغيرهم . ولم تنج أجيال ما قبل الاستقلال من الاستلاب الا بفضل الحركة السياسية القومية التى انتشلت الشخصية التونسية من الذوبان وبفضل الشعور الحاد بالانتساب الى الحضارة العربية الاسلامية التى كانت هذه الاجيال تعتز بها وتكافح من أجل اثبات دورها فى ازدهار الحضارة الانسانية . ويذهب البشير بن سلامه الى ان اهم ما يمكن ان يقدمه الادب للناس هو أدوات التفكير الكفيلة بانارة طريقهم نحو الوجهة الصحيحة فى هذا العالم . وهذا ينطبق بصورة حادة على اللغة لا من حيث العبارات والالفاظ بل من حيث هيكلها حتى تصبح معبرة فى شكلها عن العصر ويرتبط ذلك ارتباطا كبيرا بمسالة اثارها الرئيس الحبيب بورقيبة مرات عديدة فى مناسبات متكررة وهى مسالة شكل الكتابة العربية . وفى كتاب البشير بن سلامه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » يرى ان اعظم ثورة تكون فائدتها عظيمة للجميع وتتطور بمقتضاها العقول هى يوم ان يصدر قانون فى بلد عربى يفرض على مراحل معقولة ، الشكل بالنسبة لجميع ما ينشر على صفحات الجرائد والمجلات والمعلقات والكتب.عند ذلك تخرج الكتابة العربية فى الثوب الذى يحقق مفهوم الوحدة. وفى تقديرى ان هذه الدعوة اصبحت ميسورة بعد التقدم الطباعى واستخدام الجمع التصويرى الذى ييسر تحقيق هذه الوسيلة الاساسية فى الكتابة العربية . وهذا ليس بعسير « على كل أمة حية تنشد التقدم والازدهار لأبنائها » .

● **الاحتفالات بسنة حنبعل :**

احتفلت قرية تورو الايطالية بذكرى مرور 22 قرنا على انتصار القائد القرطاجنى حنبعل فى معركة تراسيمان سنة 217 قبل الميلاد .

وبالمناسبة هذه كان الأستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية ـ اثر عودة من زيارة قام بها الى الولايات المتحدة الامريكية لتدعيم التعاون الثقافى الثنائى بين تونس وأمريكا ـ حاضرا بالمسرح البلدى بقرية تورو الايطالية للاشراف على اختتام هذه التظاهرة التى انطلقت فى غضون سنة 1983 تحت شعار الاخوة والصداقة بين الشعوب وذلك بحضور السيد فروسكولونى دانيلو رئيس بلدية تورو وعدد من سامى الاطارات الثقافية التونسية والايطالية .

والقى السيد البشير بن سلامه كلمة بين فيها ان مشاركة تونس فى هذه الاحتفالات تؤكد رغبتها فى تدعيم روابط الصداقة القائمة بين البلدين من اجل التعاون فى مختلف القطاعات الثقافية وتحقيق التلاقح بين حضارتى الشعبين وأكد الوزير على الدور الذى يمكن أن يضطلع به البلدان بمنطقة البحر الابيض المتوسط لتحقيق التفاهم والوئام بين الشعوب المتوسطية .

وفى الختام توجه الوزير بالشكر الى كل الذين سهروا على تنظيم التظاهرة وكذلك رئيس بلدية تورو للحفاوة البالغة التى وجدها والوفد المرافق له .

وتناول السيد دانيلو قبل ذلك الكلمة فأكد حرص البلدية على اختتام الاحتفالات بسنة حنبل 1983 ـ 1984 للمشاركة التونسية مبرزا ان حضور المسؤولين التونسيين يقوم دليلا على مدى العناية الفائقة التى توليها تونس لميدان الثقافة والتاريخ .

وتولى رئيس البلدية فى اختتام هذا الحفل اهداء ميداليتين تحملان صورة حنبعل الى الرئيسين الحبيب بورقيبة ومااندرو برتينى كما تولى السيد البشير بن سلامه بدوره اهداء السيد دانيلو لوحة من الفسيفساء الرومانية يرجع عهدها الى القرن الثالث بعد الميلاد .

● **حفل اختتام السنة الجامعية للمعهد العالى للموسيقى :**

نظم المعهد العالى للموسيقى التابع لوزارة الشؤون الثقافية حفل اختتام السنة الجامعية أشرف عليه الاستاذ البشير بن سلامه وزير الثقافة يوم 1984/6/25 وذلك بمركز الفن الحى بالبلفدار .

وتضمن الحفل عرضا موسيقيا من المالوف والاغاني الحديثة الرفيعة التي انجزها طلبة المعهد مما جعل الوزير يصرح للصحافة : أن ما قدمته مجموعة المعهد العالي للموسيقى يدل على أن الطلبة الذين سيتخرجون بعد سنتين أو ثلاث سيكونون الامل لرفع مستوى الموسيقى في تونس .

وأضاف انه يمكن القول : ـ في موفى السنة الثانية من تكوين هذا المعهد ـ إننا راهنا على المستوى واننا بصدد كسب الرهان وهو ما يقوم الدليل على ان العزيمة السياسية التي أرادها المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة وعمل على أن تكون دافعا للنهوض بالثقافة التونسية صادفت في هؤلاء الشبان والاساتذة الصدى الطيب الذي جعلهم يعملون جميعا على رفع مستوى الموسيقى في تونس وعلى جعل الوسط الموسيقي يرتفع عن كل ما يشوه الفن ويعرقل مسيرته .

● محمد مزالي يشرف على توزيع الجوائز الكبرى :

أشرف الاستاذ محمد مزالي مدير مجلة « الفكر » والوزير الاول يوم الاربعاء 1984/6/27 في قصر المؤتمرات بشارع محمد الخامس على حفل بهيج لتوزيع الجوائز الكبرى لمدينة تونس للادب والفكر والفن .

وقد منحت جائزة تقديرية لكل من السيد الهادي العبيدي رئيس تحرير جريدة « الصباح » وعميد الصحفيين التونسيين والشيخ محمد الشاذلي النيفر العالم والباحث والمحقق والفقيه الذي ناضل بقلمه وسخر علمه في سبيل الحفاظ على هوية تونس هوية عربية اسلامية .

كما منحت جوائز هامة للرسامين الذين فازوا في المسابقة التي نظمتها بلدية العاصمة بمناسبة مرور 125 سنة على ذكرى تأسيسها .

وقد أصدرت مصلحة الثقافة التابعة لبلدية العاصمة بهذه المناسبة ولانجاح هذه التظاهرة الثقافية نشرية خاصة تضم ترجمات عن حياة المحتفى بهم وكلمات السادة الذين تولوا تقديمهم والحديث عنهم في هذا الحفل . وقد تضمنت هذه النشرية كلمة للرئيس الحبيب بورقيبة عن الثقافة .

● هوامش على دفتر زيارة تونس الخضراء :

«زار الشاعر د. عبد العزيز شرف تونس فى الفترة من 22 ـ 28 أفريل 1984 وسعد فيها باستقبال الشعب التونسى العظيم لقائده الحبيب بورقيبة ، ومرور أربع سنوات من الفخر فى عهد الوزير الاول الاستاذ الكبير محمد مزالى ، وسعد بلقاء الاستاذ الكبير البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية ، وكان لسان حاله مع الشاعر الاثير أبى القاسم الشابى يقول :

« أنا يا تونس الجميلة فى لج الهوى قد سبحت أى سباحه
شرعتى حبك العميق وانى قد تذوقت مره وقراحه »

وعلى هوامش هذا الشعر الجميل للشابى ؛ قال الشاعر أثناء زيارته لتونس العظيمة :

— ① —

◆ **الفكر .. واستقبال الحبيب**

« الفكر » والأدب الرفيع وأغنيات الحالم
تسرى فترقص فى الضفاف مع النسيم الناسم
وتريق آيات التحية والوفاء الدائم
للعهد .. للخضراء .. للشعب العظيم الحاكم
يحيا بعهد « حبيبه » .. عهد الفخار الباسم
يبنى الحياة « كريمة » .. جهد « الوزير » (1) العازم
متمنطقا بالعزم منك وبالفخار الحاسم
يا سيدى .. هذى التحية من محب عالم
غنى بها القلب الطروب مع « البشير » (2) القادم
بالحب والاشواق فى وجدانه المتزاحم ..
فاذا قبلت فانها .. فوق السحاب الغائم
تزجى اليك عبيرها .. أنى وجدت بعالم

(1) الوزير الاول الاستاذ المفكر الكبير محمد مزالى .
(2) وزير الشؤون الثقافية الاستاذ الاديب الكبير البشير بن سلامه .

— ٢ —

• الاستاذ محمد مزالى : الشعب ، والفكر

وأريق آيـات التحيـة ، والـوفـاء الـدائم
للشعب قد راد الحياة عزيـزة فـي العالم
« حتى استجاب لـه الزمـان » برغم ليـل قاتم
ومضى بعزم رجالـه .. كالهـادر المتلاطم
حتى يغـرد فـي الـوجـود بكل فـن عـازم
هـذا « مـزالى » كالسفين على الخضم العـارم
هـذا « مـزالى » كالربيع على الـزمـان البـاسم
ترنـو لـه تلك النجوم بـخلـدهـا المتقادم
ويسير للأمـل القصى كـومضـة من صـارم
« الفكر » والادب المصفى والـقـرار الحـاسم
يـوفـى الى عـهـد جـديد بعـد عـهـد لازم

— ٣ —

• الاستاذ البشير بن سلامه وأسرة مجلة « الفكر »

وأريق آيـات التحيـة ، والـوفـاء الـدائم
« للفكر » أسكرنى ونضر فكرتى ودعائمى
واحال جدب العلم يفحك كالمسيل الناعم
كم جئت ارتشف العلـوم من « البشيـر » العالم ؟
و « الفكـر » يبصـر فـي يـديـه منابعا للعالم
واليـوم يصـدح طـائـرى بنشيـده المتناغم
متوشحا « فكـر » « البشيـر » على الربيع الباسم
إن « البشيـر » هـو الـربيـع لكل فكـر عـازم
قـد جـاء عهـدك فى « الثقـافة » بعد طـول تقادم
لنعيش فـي عهـد « البشيـر » بكـل فـن حـالم

* * *

اللـه .. كم جهد بذلتـم للـربيـع القـادم
والشعـر أعجزه الـوفـاء على الخيال الحـالم

د. عبـد العزيـز شـرف
(القـاهرة)